جمال دلالة الجملة الخبرية وسياقها في النص القرآني

إعداد

أ.د السّيد محمد سلام

أستاذ البلاغة والنقد

وعميد كلية اللغة العربية بالمنوفية

١٤٤٥ هـ - ٢٠٢٤م

بسم الله الرحمن الرحيم

جمال دلالة الجملة الخبرية وسياقها في النص القرآني

السيد محمد السيد سلام
قسم البلاغة والنقد، كلية اللغة العربية بالمنوفية، جامعة الأزهر، مصر.
البريد الالكتروني:
elsayedsallam.lan@azhar.edu.eg

الملخص:

يهدف هذا البحث إلىٰ محاولة فهم النص القرآني، واستخراج بعض أسراره، ومعرفة علل الحسن وأسبابه، ولتحديد مسار البحث تخيرت الجملة الخبرية التي جاءت بعد الحروف المقطعة في أوائل السور، وكذلك التي استهلت بها السور القرآنية، والجملة الخبرية إما أن تكون مركبة من فعل وفاعل، أو من مبتدأ وخبر، أو تكون شرطا وجزاء، أو أن تكون ظرفا، وتفصيل ذلك في سياق البحث، وستكون الدراسة بترتيب المصحف الشريف بدءا من أم الكتاب، ونظائر استهلالها، والدراسة قائمة علىٰ ربط الجملة الخبرية بمقصد السورة الرئيس، وأثبتت الدراسة أن السور الخمسة المستهلة بالحمد لله تمثل حلقة متكاملة في بيان دلائل نعم الله ووحدانيته، وبالغ قدرته، ثم انتقل البحث بعد ذلك إلىٰ الإشارة بـ" ذلك الكتاب" ونظائرها من" تلك آيات الكتاب" مبينا الفروق بين الإشارة إلىٰ الكتاب، والإشارة إلىٰ آياته، وجاءت الجمل الخبرية في فاتحة السور غير أم الكتاب، والسور التي استهلت بالحروف المقطعة في ثلاث وعشرين سورة جمعها العلامة السيوطي في الإتقان، وقامت هذه الدراسة علىٰ استخراج أسرار هذه الجمل، ومعرفة وجه الجمال فيها علىٰ قدر مايفتح الله –عز وجل- به.

الكلمات المفتاحية : جمال دلالة الجملة الخبرية- السياق- النص القرآني.

The beauty of the significance of the news sentence and its context in the Qur'anic text

El-Sayed Mohammed El-Sayed Salam

Department of Rhetoric and Criticism, Faculty of Arabic Language in Menoufia, Al-Azhar University, Egypt.

E-mail: elsayedsallam.lan@azhar.edu.eg

Abstract:

This research aims to try to understand the Quranic text, and extract some of its secrets, and to know the ills of Hassan and its causes, and to determine the course of the search chose the news sentence that came after the cut letters in the early surahs, as well as that began by the Quranic surahs, and the news sentence either be a compound of the verb and the actor, or from the beginner and news, or be a condition and penalty, or be a circumstance, and detail it in the context of research, and the study will be in the order of the Holy Qur'an starting from the mother of the book, and analogues of its initiation, and the study is based on Linking the news sentence to the main purpose of the surah, and the study proved that the five surahs initiated, praise be to God, represent an integrated link in the statement of the evidence of God's blessings and oneness, and his great ability, and then the search moved to refer to "that book" and its analogues from" those verses of the book, indicating the differences between the reference to the book, and the reference to its verses, and the news sentences came in the opening of the surahs other than the mother of the book, and the surahs that began with the cut letters in twenty-three surahs collected by the scholar Al-Suyuti in perfection, and this study To extract the secrets of

these sentences, and to know the face of beauty in them as much as God - Almighty - opens with it.

Keywords: The beauty of the significance of the news sentence - the context - the Qur'anic text.

ض

المقدمة

الحمد لله وصلاة وسلاما علىٰ عباده الذين اصطفىٰ. وبعد:

فهذا البحث المعنون بـ(**جمال دلالة الجملة الخبرية وسياقها في النص القرآني**) يهدف إلىٰ محاولة فهم النص القرآني في باب الجملة الخبرية، اسمية كانت، أو فعلية، بقصد استخراج بعض أسرارها، ومعرفة علة حسنها في سياقها، ومن ثم دار حديثه عن الجملة الخبرية التي استهلت بها بعض سور القرآن الكريم، سواء سبقها حروف مقطعة، أو جاءت في فاتحة السورة، وبدأتُ بما بدأ الله –عز وجل- به، فكانت البداية بفاتحة الكتاب، وما جاء باستهلالها (الحمد لله) وذلك في خمس سور معلومة لمن عنده دراية بكتاب رب العالمين، وعقدت مقارنة بينها، مع معرفتي بمقصد كل سورة منها، والموضوعات التي احتوتها كل منها، وإذا كانت الجملة الخبرية عند علماء البلاغة لها واقع يطابقها، أو لا يطابقها، فإنها في كلام الله –سبحانه- لا تحتمل الظن، أو الشك، فكلام الله لا ريب فيه، والسور الخمس تمثل حلقة متكاملة في بيان نعم الله–عز وجل- ووحدانيته، وبالغ قدرته.

وجاء البحث بعدها في بداية السور المستهلة بـ(ذلك الكتاب) و(تلك آيات الكتاب) بعد الحروف المقطعة، مجليا الفرق بين (ذلك) و(تلك) مع أن (ذلك) خاصة بالكتاب، و(تلك) خاصة بآيات الكتاب، وجاء ذلك في سبع فواتح من سور القرآن الكريم بعد الاستهلال بالحروف المقطعة، وذلك بغرض البحث عن دلالة كل استهلال وردت فيه، وكلها تجلي بُعد المنزلة، وما فيها من نفع ظاهر، أو باطن، يتناسب مع نعم الله التي قال فيها ﴿وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ﴾ [سورة لقمان: ٢٠]., وكل سورة فيها من الدلائل ما يناسب ختام الآية بـ(حكيم) أو (مبين) وهذه الدراسة وضحت ذلك قدر طاقتها مستعينة بكلام العلماء.

ويبقىٰ من الفواتح الخبرية ثلاث وعشرون سورة، وهي: الأنفال، وبراءة، والنحل، والأنبياء، والمؤمنون، والنور، والزمر، ومحمد، والفتح، والقمر، والرحمن،

والمجادلة، والحاقة، والمعارج، ونوح، والقيامة، وعبس والبلد، والقدر، ولم يكن، والقارعة، والتكاثر، والكوثر.

قامت الدراسة ببيان جمال هذه الفواتح ومناسبة كل منها للسياق الذي وردت فيه، معرجة علة وقعها الصوتي، قبل الحركي، ذلك الذي لان له قلب عمر بن الخطاب عندما استمع لرسول الله صلىٰ الله عليه وسلم وهو يقرأ سورة الحاقة.

وختمت البحث بـ: جمال الدلالة والسياق في الجملة الشرطية المستهلة بـ(إذا) في سبع سور من القرآن الكريم؛ مجليا دلالة كل منها في سياقها.

ومن ثم كان سبب اختيار هذا الموضوع هو تدبر هذه الفواتح، وبيان جمال دلالتها بين سياقها، حسبما يفتح الله به، مستعينة بكلام العلماء.

ولا أعلم دراسة في هذا الباب، وإن كانت هناك دراسة، أو دراسات فلكل باحث أسلوبه، ولكل باحث هدفه.

واتبعت في ذلك المنهج الوصفي، المتبوع بالمنهج التحليلي، وأقمت البحث علىٰ ما قام عليه من بنائه، غير مقسم إلىٰ مباحث ونحوها، إنما هي موضوعات تتناسب مع أنواع الجمل الخبرية؛ استنادا علىٰ فهم القارئ، وقوة عقله، ومن ثم كان البحث كله- من وجهة نظري- نتائج مهمة، يصل إليها القارئ الجيد المتمرس مع بيان الله-عز وجل- والذي وصفه رسول الله-صلىٰ الله عليه وسلم- بأنه مع السفرة الكرام البررة.

والله ولي التوفيق

أ د: السيد محمد سلام

أستاذ البلاغة والنقد وعميد الكلية

السادس عشر من ذي الحجة لعام ١٤٤٥هـ

الموافق ٢٢/ ٦/ ٢٠٢٤م.

جمال دلالة الجملة الخبرية وسياقها في النص القرآني

سبق أن كتبت بحثا في جمال دلالة حروف المباني، وآخر في جمال دلالة حروف المعاني في النص القرآني، والحرف كانت دراسته دائرة بين حروف المباني المقطعة التي وقعت استهلالًا لبعض سور القرآن الكريم، وحروف المباني التي نسجت منها بعض الكلمات، وذكرت فيها هذه الحروف أو حذفت منها؛ أي ذكرت في مواضع، وحذفت من أخرىٰ، وكان ذلك بهدف استخراج دلالة الذكر، ودلالة الحذف كل في سياقه الأخص الأشكل به باعتبار تناسبه لسياقه، ومقامه الذي ذكر فيه، وعلاقة ذلك بمقصود السورة التي ورد فيها ذكرًا أو حذفا، وكذا حروف المعاني في بعض شواهدها، كأن تذكر الواو في سياق كلمة وتحذف من نظيرتها كما في قوله تعالىٰ ﴿ فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا ﴾ و﴿ وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا ﴾ بالنسبة لأهل الجنة، أهل الخير، والزيادة، ذكرت معهم الواو؛ لحسن الاستقبال، والتهيؤ، والاستعداد لهم، وحذفها من الحديث عن أهل النار؛ تناسبًا مع ما يحدث لهم فيها من نقص في أجزائهم المتمثلة مثلًا في قول ربنا -سبحانه-: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ﴾ [النساء: ٥٦]، وهكذا دارت دراسة الحرف والكلمة، وتجلت جماليات الدلالة في كل منهما من خلال السياق في النص القرآني.

وهنا سأبحث بابًا آخر في جمال دلالة الجملة الخبرية وسياقها في النص القرآني وذلك بقصد محاولة فهم النص القرآني، واستخراج بعض أسراره، ومعرفة علل الحسن وأسبابه.

ولتحديد مسار البحث ليكون في نص معين، وسياق معين يحدد مجالًا من مجالات جمال الدلالة البلاغية في بناء الجملة، أتخير من ذلك الجملة الخبرية التي استهلت بها كل سورة من سور القرآن الكريم اسمية، أو فعلية، وذلك فيما بعد

الحروف المقطعة في السور المستهلة بذلك؛ حيث سبق النظر في هذه الأحرف المقطعة في بحث آخر، ولكنه لا يحرمني من الوقوف علىٰ جمال ما بعد هذه الحروف في السور المستهلة بها، وذلك لأن مقصود كل سورة من سور القرآن الكريم ينبلج من فاتحة السورة، وينشر ظلاله علىٰ جميع مقاطع السورة، والبحث الدقيق يثبت ذلك؛ لأن المقصود الأعظم للسورة يشتمل علىٰ جميع دوائرها الداخلية، والسورة -كما تعلمنا- دائرة كبرىٰ، بينها دوائر صغرىٰ، هي مجالات بنائها، وهي المحددة لأغراضها المترابطة، والدائرة في فلك الدائرة الكبرىٰ لكل سورة، فمثلًا سورة البقرة مقصودها الأعظم: الدلالة علىٰ أن القرآن هدي ليتبع، لو تأملنا في كل القصص التي وردت فيها لوجدنا هذا السبيل يجري في كل قصة، أو موضوع منها، فبدايتها أنه هدىٰ، وقصة بقرة بني إسرائيل فيها هذه الدلالة أيضًا، وآيات تحويل القبلة دليل من دلائل الهدىٰ أيضًا، والحديث عن الأهلة ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾ [البقرة: ١٨٩] من دلائل الهدىٰ، وسؤال إبراهيم ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ ﴾ [البقرة:٢٦٠] من دلائل الهدىٰ أيضًا، والحديث عن الدَّين وكتابته من دلائل الهدىٰ، وختام السورة كذلك، هذا كله علىٰ سبيل المثال من أن المقصود الأعظم لكل سورة ينشر ظلاله عليها، وهذا من الدلائل علىٰ أن كلام الله ليس كمثله كلام.

ودراسة الجملة التي تكونت من كلمات، قد تكون بعض الكلمات في نسيجها جملة تتألف من فعل وفاعل ومفعول، أو مسند ومسند إليه، ولكنه مع ذلك ركن في جملة لها معنىٰ متكامل، ولها دلالة مترابطة مع سياقها، ولها نور يتجلىٰ من مقامها،

ولها مقام يحدده وقْعُها وموقعها، والمعنىٰ المستفاد منها يحتاج إلىٰ النظر في كل ذلك، وجمال الدلالة هو أعلىٰ ما يؤخذ منها غير منقطعة عن سياقها.

والجملة وإن كان لها في الدراسات النحوية مجالات كثيرة، نحو كونها اسمية، أو فعلية، أو ظرفية، حين تبدأ بظرف، أو شرطية، جمع ذلك أبو علي الفارسي في قوله:

"وأما الجملة التي تكون خبرًا فعلى أربعة أضرب:

الأول: أن تكون جملة مركبة من فعل وفاعل، **والثاني:** أن تكون مركبة من ابتداء وخبر، **والثالث:** أن تكون شرطًا وجزاءً، والرابع: أن تكون ظرفًا"(١).

وفيه يقول عبد القاهر معلّقًا: "فقد حصل لك أربعة أضرب من الجمل، وهي في الأصل اثنتان: الجملة من الفعل والفاعل، والجملة من المبتدأ والخبر"(٢).

وزاد ابن هشام بأن الجملة قد تكون صغرىٰ وكبرىٰ، والكبرىٰ هي الإسمية التي خبرها جملة نحو: زيد قائم أبوه، وزيد أبوه قائم، والصغرىٰ هي المبنية علىٰ المبتدأ كالجملة المخبر بها في المثالين، ثم تحدث ابن هشام بعد ذلك عن انقسام الجملة الكبرىٰ إلىٰ ذات وجه، وإلىٰ ذات وجهين، وعرّف ذات الوجه بأنها: اسمية الصدر، وفعليّة العجز، نحو: "زيد يقوم أبوه" كذا قالوا، وينبغي أن يراد عكس ذلك في نحو "ظننت زيدًا أبوه قائم" يعني فعلية الصدر اسمية العجز، وذات الوجه نحو "زيد أبوه قائم" فهذه اسمية الصدر والعجز، وقد تكون فعلية الصدر والعجز، نحو "ظننت زيدًا يقوم أبوه.(٣)

---

(١) المقتصد في شرح الإيضاح لعبد القاهر الجرجاني، تحقيق: كاظم المرجان، دار الرشيد للنشر، ١٩٨٥م ١/ ٢٧٣.

(٢) السابق ١/ ٢٧٧.

(٣) ينظر: مغني اللبيب، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ٢/ ٣٨٠.

ثم تحدث ابن هشام بعد ذلك عن الجمل التي لا محل لها من الإعراب وسأوجزها فقط لكون مرآة للناظرين، وكذلك التي لها محل.

وبين أن التي لا محل لها من الإعراب سبع، وهي التي لا تحل محل المفرد وذلك هو الأصل في الجمل.

الجملة الأولى: الابتدائية، وتسمى أيضًا المستأنفة، وهو أوضح؛ لأن الابتدائية تطلقها أيضًا على الجملة المصدرة بالمبتدأ ولو كان لها محل، وأما المستأنفة فتطلق على الجملة المفتتح بها النطق، ومنه الجمل المفتتح بها السور، وتطلق على المنقطعة عما قبلها كقوله -تعالى-: ﴿قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ۝٨٣ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ۝٨٤﴾ [**الكهف: ٨٤**] ، ويخص البيانيون الاستئناف بما كان جوابًا لسؤال مقدر كقوله -تعالى-: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ۝٢٤ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٤، ٢٥]، كأنه قيل: فماذا قال لهم؟ فقيل: قال سلام.

الجملة الثانية: المعترضة بين شيئين لإفادة الكلام تقوية وتسديدًا أو تحسينًا، كالمعترضة بين الشرط وجوابه في مثل قول الله -تعالى-: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ﴾ [النحل: ١٠١].

الجملة الثالثة: التفسيرية، وهي الفضلة الكاشفة لحقيقة ما تليه، كقوله -تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩] فخلقه وما بعده تفسير لمثل آدم.

الجملة الرابعة: المجاب بها القسم كقوله -تعالى-: ﴿وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [يس:٢، ٣].

الجملة الخامسة: الواقعة جوابًا لشرط غير جازم مطلقًا أو جازم ولم تقترن بالفاء ولا بـ"إذا" الفجائية، فالأول جواب لو ولولا ولمّا وكيف، والثاني نحو: إن تقم أقم.

الجملة السادسة: الواقعة صلة لاسم أو حرف، كقوله -تعالىٰ-: ﴿رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا﴾ [فصلت: ٢٩]، ونحو قولهم: أعجبني أن ما قُمت.

الجملة السابعة: الجملة التابعة لما لا محل له، نحو: "قام زيد ولم يقم عمرو" إذا قدرت الواو عاطفة، لا واو الحال.

أما الجمل التي لها محل من الإعراب فهي أيضًا سبع:

الأولى: الواقعة خبرًا.

والثانية: الواقعة حالًا، وموضعها نصب، كقوله -تعالىٰ-: ﴿لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ﴾ [النساء: ٤٣].

والثالثة: الواقعة مفعولًا، ومحلها النصب إن لم تنب عن فاعل، وهذه النيابة مختصة بباب القول، كقوله -تعالىٰ-: ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [المطففين: ١٧].

الرابعة: المضاف إليها ومحلها الجر، كقوله -تعالىٰ-: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوۡمَ يَأۡتِيهِمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ [إبراهيم: ٤٤].

والخامسة: الواقعة بعد الفاء، أو إذا، جوابًا لشرط جازم؛ لأنها لم تصدر بمفرد يقبل الجزم لفظًا، كما في قوله -تعالىٰ-: ﴿مَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ﴾ [الأعراف: ١٨٦] وقوله -تعالىٰ-: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ إِذَا هُمۡ يَقۡنَطُونَ﴾ [الروم: ٣٦].

السادسة: التابعة لمفرد، كقوله -تعالىٰ-: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

السابعة: التابعة لجملة لها محل، ويقع ذلك في بابي النسق والبدل خاصة.(١)

أوجزت أنواع الجمل ليكون -كما سبق- مرآة فقط تذكر القارئ بأنواعها، ولكن ليس من وكد هذه الدراسة البحث في كلام النحاة؛ لأن البلاغة تدرس معاني النحو، وليس النحو الخالص، بل ما يفاد من معانيه، ومعانيه تتجلىٰ في بلاغة دلالة الجملة بين سياقها خبرية كانت أو إنشائية.

وكما قلت تحديدًا لمسار البحث، وليكون له ضابط في دراسة الجملة بأنواعها اسمية أو فعلية، خبرية، أو إنشائية، ليكون مساره دراسة الجملة التي استهلت بها كل سورة من سور القرآن الكريم، مع ضم النظائر وجمع المتشابهات وعقد مقارنة بينها تجلىٰ أسرار البداية في كل سورة، مع الوقوف عند السور التي جاء مفتاحها واحدًا، كالسور المستهلة بلفظ "الحمد" مثلًا، وهنا ستكون الدراسة في الجمل الخبرية فقط، أما الجمل الإنشائية فلها بحث آخر إن شاء الله تعالىٰ.

والجملة الخبرية عند العلماء نسبة إلى الخبر، وهو الكلام الذي له واقع يطابقه أو لا يطابقه، وتحتمل الصدق والكذب، ويستثنىٰ من ذلك الأخبار القرآنية، والإنشائية نسبة إلىٰ الإنشاء، وهو الإيجاد؛ أي إنشاء المعنىٰ إنشاء وليست لها نسبة خارجية، ولا تحتمل الصدق أو الكذب، وبناء علىٰ ذلك فهي مرتبطة بأمر معنوي، وتستخدم كل منهما في موضع الأخرىٰ، فقد يكون الكلام خبرًا في اللفظ إنشاء في

(١) مغني اللبيب، ج٢/ ٤١٠: ٤٢٦ باختصار.

المعنىٰ، وقد تكون إنشائية في اللفظ خبرية في المعنىٰ؛ مما يدل علىٰ أن اللفظ يدل علىٰ المعنىٰ المراد، وأنه هو مفتاحه الذي يكشف عن خباياه.

ويكفي هذا في الجانب النظري؛ لأن مجاله لا ينتهي، وأنتقل إلىٰ الجانب التطبيقي جامعًا النظائر، متىٰ وجدت، مبيّنًا -علىٰ قدر الاستطاعة- جمال الدلالة في كل منها وأسباب تكرارها في مفتاح أكثر من سورة.

وستكون الدراسة بترتيب سور المصحف الشريف، بادئة بالجمل الخبرية، ثم الإنشائية بعد ذلك في بحث آخر إن شاء الله تعالىٰ.

أولًا: الجمل الخبرية في مقدمات سور القرآن الكريم:

أول سورة تطالعنا: أم الكتاب، استهلت بـ "الحمد لله" ومعلوم أن الجملة تتكون من كلمات يسند بعضها إلىٰ بعض أو يخبر ببعضها عن بعض، فـ"الحمد لله" جملة أدت معنىٰ هو إسناد الحمد لله علىٰ الإطلاق، ولا حمد علىٰ الإطلاق إلا لله -سبحانه وتعالىٰ- ووقعت هذه الجملة استهلالًا لخمس سور من سور القرآن الكريم، ولكن اختلفت الأوصاف التي بعدها في كل سورة عن الأخرىٰ، وذلك يرجع إلىٰ المقصد والسياق والمقام والترتيب الذي جاءت عليه هذه السور.

فجاءت فاتحة الكتاب بـ "الحمد لله رب العالمين"، والحمد لله جملة مكونة من مبتدأ خبره الجار والمجرور المتعلق بمحذوف، ورب صفة لاسم الجلالة، وتصلح بدلًا منه، والعالمين مضاف إليه مجرور وعلامة جره الياء نيابة عن الكسرة؛ لأنه ملحق بجمع المذكر السالم.

وجاءت بعدها سورة الأنعام ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١].

الاتفاق -كما سبق- في الجملة الأولىٰ فقط دون توابعها لفظًا فقط، ولكن قد يكون الإعراب واحدًا، ففي الفاتحة جاءت الصفة "رب" صفة لاسم الجلالة، وهنا جاءت صفة اسم الجلالة اسمًا موصولًا "الذي"، وجملة "خلق السماوات والأرض" صلة الموصول.

وكذلك الشأن في السورة الثالثة التي استهلت بـ "الحمد لله" سورة الكهف ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ﴾ جاء نعت اسم الجلالة باسم الموصول كما هو في الأنعام، ولكن الصلة اختلفت عنها هنا، وكذلك الشأن في سورة سبأ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ جاء نعت اسم الجلالة أيضًا باسم الموصول، أما سورة فاطر فجاء نعت اسم الجلالة اسم فاعل "فاطر" قال -تعالىٰ-: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [فاطر: ١].

وأول ما يطالعنا من جمال دلالة جملة "الحمد لله" هو بحث العلاقة بين السور الخمس التي استهلت بهذه الجملة، مع تباعد ما بينها باعتبار ترتيب سور المصحف الشريف؛ أي لم تتجاور كما تجاورت بعض السور التي اتحد مفتاحها كبعض السور المستهلة بـ "الم" أو "طس" وما يشتق منها، أو "حم"، فقد وقعت سورة الفاتحة افتتاحًا للقرآن، كما هو مسماها الغالب عليها إضافة إلىٰ المسميات الأخرىٰ، نحو "أم القرآن" لاشتماله علىٰ معاني القرآن إجمالًا بما فيه من عقيدة وشريعة، وفي ذلك حديث للنبي -صلَّىٰ الله عليه وسلَّم-: "لا صلاة لمن لم يقرأ بأم القرآن" وتسمىٰ أيضًا "الوافية" لوفائها بالمعاني القرآنية و"الكافية" لكفايتها المؤمن وإمداده بكل خير، و"الكنز" لما قال ربنا في الحديث القدسي: "الفاتحة كنز من كنوز عرشي"، و"الشفاء" لأن النبي -صلَّىٰ الله عليه وسلَّم- قال: "فاتحة الكتاب شفاء من كل داء

إلا السام" أي الموت، و"السبع المثاني" لأنها تثنىٰ في الصلاة، وتسمىٰ بـ"الصلاة"، و"الحمد"، و"الواقية"، و"الراقية"، و"الكنز" ... وغير ذلك مما جمعه بعض المفسرين ...[1].

وقيل: إنها أول سورة نزلت كاملة، ولذلك بدئ بها المصحف الشريف، وقيل: إنها نزلت بمكة بعد سورة المدثر، وهو قول أكثر العلماء، وقيل: نزلت بالمدينة، وهو قول مجاهد، وقيل: نزلت مرتين، مرة بمكة، ومرة بالمدينة، وسبب ذلك التنبيه علىٰ شرفها وفضلها، وإذا كانت قد نزلت بعد سورة المدثر فهي خامسة سور القرآن نزولًا، وهي من القرآن بمنزلة المقدمة للكتاب؛ لأنها تبين الغرض منه؛ ليكون القارئ علىٰ بصيرة قبل الشروع فيه.[2]

وبين هذه السورة المفتتحة بـ "الحمد لله" ونظيرتها المكية أيضًا المفتتحة بنفس الافتتاح، وهي سورة الأنعام، بينهما أربع سور، وبين الأنعام والكهف -ثالثة السور المستهلة بالحمد- إحدىٰ عشرة سورة، وبين الكهف وسبأ خمس عشرة سورة، وختمت السور الخمس بسورة فاطر ولم يكن بينها وبين سبأ فاصل.

وتقارب الفواتح يدل علىٰ رباط وثيق، لم يتوقف عند مقصودها، فلكل سورة مقصد تستظل به معانيها، فمقصود سورة الفاتحة -كما قال البقاعي: "مراقبة العباد لربهم" وأسماؤها دالة علىٰ ذلك، واسم كل سورة مترجم عن مقصودها؛ لأن اسم كل شيء تلحظ المناسبة بينه وبين مسماه، عنوانه الدال بالإجمال علىٰ تفصيل ما فيه، وعلىٰ قدر المقصود من كل سورة تكون عظمتها.[3]

---

(١) ينظر في ذلك: البحر المحيط لأبي حيان، ١/ ٣٢، مصاعد النظر ١/ ٢٠٩.
(٢) ينظر: النظم الفني في القرآن، للشيخ عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب، ص٤٢.
(٣) مصاعد النظر، ٢/ ٢٠٩ باختصار.

والتكامل بين السور الخمس يوضحه فخر الدين الرازي، وهو يتحدث عن آخر السور المستهلة بالحمد لله، وجمعه سعد الدين التفتازاني، وشرحه برهان الدين البقاعي.

ويتلخص ذلك في: أن الحمد في الفاتحة إشارة إلىٰ جميع النعم، وفي الأنعام إشارة إلىٰ الإيجاد أولًا، وفي الكهف إشارة إلىٰ الإبقاء أولًا، وفي سبأ إشارة إلىٰ الإيجاد ثانيًا، وفي فاطر إشارة إلىٰ الإبقاء ثانيًا.

فهذه نعم تترابط وتتقارب وتتكامل، وهنا يبرز جمال دلالة الاستدلال بالحمد في خمس سور كأنها في القرآن الكريم أعمدة تؤصل عموم الحمد، ثم يتفرع عنها الحمد علىٰ نعمة الإيجاد، ونعمة الإبقاء، أي الإيجاد الدنيوي والإبقاء الأخروي، ولا بد من ذكر كلام الرازي لتتجلىٰ المسألة ويعظم جمال دلالة الاستهلال بالحمد خمس مرات في كتاب الله، بالإضافة إلىٰ جمال البناء وتغير الوصف -كما سيأتي- وفي بيان ترابط النعم يقول الرازي: "قد ذكرنا فيما تقدم أن الحمد يكون علىٰ النعمة في أكثر الأمر، ونعم الله قسمان: عاجلة وآجلة، وجود، وبقاء، والآجلة كذلك إيجاد مرة، وإبقاء أخرىٰ، وقوله -تعالىٰ-: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ إشارة إلىٰ النعمة العاجلة التي هي الإيجاد، وأسند للفاعلية بقوله -تعالىٰ-: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا﴾ وقوله في الكهف: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ إشارة إلىٰ النعمة العاجلة التي هي الإبقاء، فإن البقاء والصلاح بالشرع والكتاب، ولولاه لوقعت المنازعة والمخاصمة بين الناس، ولا يفصل بينهم، فكان يفضي ذلك إلىٰ التقاتل والتفاني، فإنزال الكتاب نعمة يتعلق بها البقاء العاجل، وفي قوله في سورة سبأ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾

إشارة إلىٰ نعمة الإيجاد الثاني بالحشر، وأسند للفاعلية بقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ من الأجسام ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ من الأرواح، ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾، وقول الكافرين ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي﴾، وهنا الحمد إشارة إلىٰ نعمة البقاء في الآخرة، ويدل عليه قوله -تعالىٰ-: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ أي يجعلهم رسلًا يتلقون عباد الله "(١)

وهذا كله مجموع في أم الكتاب، يقول سعد الدين التفتازاني: "نعمة الله علىٰ كثرتها ترجع إلىٰ إيجاد وإبقاء أولًا، وإيجاد وإبقاء ثانيًا، فيحمده علىٰ القسمين، تأسيًا بالسور المفتتحة بالتحميد؛ حيث أشير في الفاتحة إلىٰ الجميع، وفي الأنعام إلىٰ الإيجاد، وفي الكهف إلىٰ الإبقاء أولًا، وفي سبأ إلىٰ الإيجاد، وفي الملائكة إلىٰ الإبقاء"(٢)

والذي يقصده بأن الجميع في الفاتحة لشمولها لمطلق الحمد، بالإضافة إلىٰ أن معنىٰ "رب العالمين" أي مُوجدهم ومالكهم، وهذا هو الإيجاد الأول، وقوله "مالك يوم الدين" هو الإيجاد الثاني، و"الرحمن الرحيم" هو المنعم بجلائل النعم ودقائقها، وهذا هو الإبقاء الأول، والإبقاء الثاني في التخصيص بالعبادة والاستعانة "إياك نعبد وإياك نستعين"، ومن ثم كانت "أم الكتاب" بكل ما فيه من دقائق وجلائل.

فجمال الدلالة في هذا الاستهلال بالجملة الخبرية "الحمد لله" في السور الخمس هو عموم الحمد وشموله للإيجاد والإبقاء أولًا وآخرًا، ويضاف إلىٰ ذلك من جمال الدلالة براعة الاستهلال، وجمال الابتداء في ما يخص، وما يعم من أمور النعم التي تشمل فضل الله في الأولىٰ والآخرة، وعلىٰ ذلك ففاتحة الكتاب تجمع استهلالين؛ أولهما: الاستهلال للكتاب كله لشمولها عموم مقاصده وجمال معانيه، بالإضافة إلىٰ

---

(١) تفسيره ج٢٦/ ٢.

(٢) شرح التلويح علىٰ التوضيح لمتن التنقيح في أصول الفقه، تحقيق: زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١٩٩٦م، ١/ ٦.

ما فيها من معالم البلاغة نحو عموم الحمد، وإطلاقه؛ لأنه بذلك يستغرق جميع المحامد؛ لأن "أل" فيه للاستغراق والعموم، وما في معنىٰ "الحمد" من الأمر؛ أي قولوا: الحمد لله، والاختصاص في اسم الجلالة "الله" فهذا اختصاص باللام، وفيه الاختصاص بالإضافة في "مالك يوم الدين" وبلاغة التقديم في "إياك نعبد وإياك نستعين" والالتفات من الغيبة إلىٰ الخطاب فيه قمة الدلالة علىٰ خلوص العبادة لله -عز وجل- والالتفات هنا -كما قال شيخنا أبو موسىٰ- يشير إلىٰ تصاعد الإحساس بالجدل حتىٰ تخلص النفس في مراحل عروجها من شؤونها الأرضية، فتشافه الحق، وتعلن هناك غاية العبودية والاستسلام"(١)

فإذا كانت جملة "الحمد لله" علىٰ إطلاقها، ففي السورة كذلك بلاغة القرآن مع إيجازها، وإجمالها، جمعها السيوطي في قوله: "فنبه في الفاتحة علىٰ جميع مقاصد القرآن، وهذا هو الغاية في براعة الاستهلال، مع ما اشتملت عليه من الألفاظ الحسنة، والمقاطع المستحسنة، وأنواع البلاغة"(٢).

ويكفي جمال دلالة هذه الجملة سر التعبير بها دون الشكر ونظائره، وفيه يقول أبو هلال: "الفرق بين الشكر والحمد أن الشكر هو: الاعتراف بالنعمة علىٰ جهة التعظيم للمنعم، والحمد: الذكر بالجميل علىٰ جهة التعظيم المذكور به، ويصح علىٰ النعمة وغيرها، والشكر لا يصح إلا علىٰ النعمة"(٣)

فالحمد فيه اختصاص برب العالمين؛ لذا قال "لله" لغاية جلاله وإنعامه، ويقول الرازي: "كل ما كان حمدًا وثناء فهو لله وحقه، وملكه"(٤).

---

(١) خصائص التراكيب ٢٠١.

(٢) معترك الأقران تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الحرم، ١/ ٧٥.

(٣) الفروق اللغوية تحقيق: حسام الدين القدسي، دار الكتب، ١٩٨١م، ٣٥ باختصار.

(٤) تفسيره ١/ ٢٢٥.

وكل سورة استهلت بالحمد لله، فيها من الدلائل والجلائل الدالة علىٰ عظمة الله ما يناسب هذا الاستهلال، وقد تجلىٰ ما بين السور الخمس من رباط يكفي في جمال الدلالة، وبراعة السياق الذي تفيده الجملة وحدها؛ وهو مفصل في بناء سورها.

ض ويبقىٰ من جمال الدلالة علىٰ إطلاق الحمد لله في كل الأمور، وعلىٰ كل الأحوال، ووجوب ذلك له خاصة.

يبقىٰ الفرق بين ما وصف به في كل سورة، فهو كما تبين وصف بـ"رب العالمين" في الفاتحة، وبـ" فاطر" في سورة فاطر، واتفق الوصف باسم الموصول "الذي" في الثلاثة التي بين ذلك: الأنعام، الكهف، سبأ، ففي الأنعام: الذي خلق السماوات والأرض، وهذا هو الإيجاد الأول، وفي سبأ: الذي له ما في السماوات وما في الأرض وله الحمد في الآخرة، وهذا هو الإيجاد الثاني، وفي الكهف: الحمد لله الذي أنزل علىٰ عبده الكتاب، وهذا هو الإبقاء الأول، وفي فاطر: الحمد لله فاطر السماوات والأرض، وهذا هو الإبقاء الثاني و" رب العالمين" في الفاتحة يجمع كل ذلك، فاسم الموصول في الأنعام، والكهف إشارة إلىٰ إيجاد وإبقاء أولًا، واسم الموصول في سبأ وفاطر، إيجاد وإبقاء ثانيًا، وهذا يدل علىٰ أن "اسم الموصول" يشير إلىٰ خفايا وجلائل، كما قال الشيخ عبد القاهر: "اعلم أن لك في "الذي" علمًا كثيرًا، وأسرارًا جمة، وخفايا إذا بحثت عنها وتصورتها اطلعت علىٰ فوائد تؤنس النفس، وتثلج الصدر بما يفضي بك إلىٰ اليقين، ويؤديه إليك من حسن التبيين" وذكر من ذلك "قولهم: إن "الذي" اجتلب ليكون وصلة إلىٰ وصف المعارف بالجمل"(١)

وهذا خير دليل علىٰ أن اسم الموصول "الذي" الذي جاء في سور: الأنعام، والكهف، وسبأ، كان مقدمة لأوصاف وحقائق بنيت عليها كل سورة من هذه السور

(١) دلائل الإعجاز ١٩٩.

من دلائل الإيجاد في الأنعام، والإبقاء في الكهف، والإيجاد الثاني في سبأ، ويضاهيه الوصف بـ"فاطر" في سورة الملائكة؛ لأن الذي فطر قادر علىٰ الإبقاء ثانيًا، وفي كل سورة منها ما لو تأملناها، أو درسناها لوجدنا لكل وصف دلائل وشواهد، فلو تأملنا في نسيج بناء هذه السور لألفينا الدلالة القاطعة علىٰ وحدانية الله من بداية اختصاص الحمد "الحمد لله" ونعمة الخلق المقتضية لذلك، وكذا نعمة إنزال الكتاب في الكهف، وما فيها من دلائل باهرة، وقوىٰ قاطعة، والملكية في سبأ "له ما في السماوات" و"فالق" في الأنعام تضاهي "فاطر" في فاطر، لتجلي القدرة علىٰ الجمع بين إيجاد أول، وإبقاء آخر، ومعالم كل سورة تشهد بما فيها من نعم تستدعي عموم الحمد علىٰ كل نعمة، وإطلاقه كذلك تم خصوصه بهذا الإطلاق؛ أي لا يستحقه علىٰ كل حال سواه؛ لأن كل ما جاء من عند الله خير للإنسان عَلِمه الإنسان، أو لم يعلمه، فكل ما جاء في حيز الصلة معضد لمضمونها، ومبرز لما فيها من أسرار جمة، وخفايا تونس النفس، وتثلج الصدر، وهذا يحتاج إلىٰ دراسة بناء كل سورة، وليس هنا مجاله.

ونخلص من ذلك إلىٰ أن هذه السور الخمس تمثل حلقة متكاملة في بيان دلائل نعم الله، ووحدانيته، وبالغ قدرته، وكل ما جاء صلة للموصول، وما بني عليه في الأنعام، والكهف، وسبأ، دليل قاطع علىٰ ذلك، ويبقىٰ عندنا الوصف بـ " رب العالمين" في الفاتحة، والوصف "فاطر السماوات والأرض" في سورة الملائكة، التي كان الوصف فيها "فاطر، وجاعل" الدالان علىٰ طلاقة القدرة، وثبات الدلالة علىٰ عظمة الله - سبحانه-في الدنيا والآخرة.

وبيّن الراغب أن "جاعل" من جعل عام في الأفعال كلها، وهذا يدل علىٰ قدرة الحق علىٰ الإبقاء ثانيًا كأحسن ما كان في الإبقاء أولًا، وجاء التعبير بـ "فاطر" للتدليل علىٰ أن الإبقاء الثاني لا يقل إبداعًا عن الإبقاء الأول، والحديث عن نعم الله في السورة دليل علىٰ أن دار الجزاء أتم وأكمل في بيان نعم الله وعطائه.

ومع كل ذلك فالوصف بـ"رب العالمين" في أول سورة من السور الخمس يجمع كل ما تم تفصيله فيها، فاسم الجلالة "الله" فيه من القوة والهيمنة ما لا يُحدّ ولا يُعدّ، ولا يستطيع جمعه بشر، وكلمة "رب" أضيفت للعالمين، فكان لا بد منها حينئذٍ؛ لما في مدلولها من الشفقة والرحمة، ثم إن هذا في فاتحة الكتاب فلا بد من الجمع بين الترهيب والترغيب، والقرآن مشتمل عليهما.

وكما سبق فاتحة الكتاب جامعة لما جاء به الكتاب الذي تجلىٰ منه أن "لكل نوع من المعنىٰ نوعًا من اللفظ، هو به أخص وأولىٰ، وضروبًا من العبارة هو بتأديته أقوم، وهو فيه أجلىٰ ومأخذًا إذا أُخذ منه كان إلىٰ الفهم أقرب، وبالقبول أخلق، وكان السمع له أوعىٰ، والنفس إليه أميل"(١)

ومن هذا القبيل كانت السور الخمس المستهلة بالحمد دائرة كبرىٰ تحيط بعظمة الله، رحمة، وقدرة، سواء في نعمة الإيجاد، ونعمة الإبقاء، فهي أصول كبيرة توزعت بين ثنايا الكتاب العزيز، واستهلالها بـ"الحمد لله" فيه دلالة علىٰ أن كل ما يجري في غيرها من سور القرآن الكريم قائم عليها، ومبني علىٰ دعائمها، وكأنها أقطاب تدور عليها معالم استحقاق الحمد، وإطلاقه لله، واختصاصه به، وليس هناك في البيان أجمل دلالة علىٰ قدرة الله، وإحاطة علمه، وطلاقة عظمته، وبراعة رحمته، من هذا الذي رأيناه في سور خمس استهلالها واحد، وجامعة للحياتين والبقاءين، وأول أوصاف الله فيها "رب العالمين".

(١) دلائل الإعجاز ٥٧٥.

ومن جماليات الدلالة والسياق في الجملة الخبرية أيضًا:

الإشارة إلىٰ الكتاب، والإشارة إلىٰ آيات الكتاب مع اختلاف اسم الإشارة بين "ذلك" و"تلك" والأولىٰ هي الوحيدة التي دخلت علىٰ الكتاب في القرآن كله، سواء في فاتحة السور أو في داخلها، وهي قوله -تعالىٰ- ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ ﴾ [البقرة: ٢]، أما الإخبار بـ"تلك" فجاء عن آيات الكتاب، وفرق بين الإشارة إلىٰ الكتاب مباشرة، والإشارة إلىٰ آياته، وجاء ذلك في سبع فواتح من سور القرآن الكريم بعد الحروف المقطعة التي استهلت بها كل سورة من هذه السور، ولكن اختلف وصف الكتاب بين "حكيم" و"مبين"، والقسم، فجاء "حكيم" وصفًا للكتاب مرتين بعد الحروف المقطعة أيضًا ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ﴾ [يونس: ١، ولقمان: ٢]، وجاء "مبين" وصفًا للكتاب في ثلاث آيات هي: قوله -تعالىٰ-: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴾ [يوسف: ١، والشعراء: ١، والقصص: ٢]، وجاء العطف عليها مرتين، مرة باسم الموصول ﴿وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ﴾ [الرعد:١] ومرة بـ"القرآن" ﴿وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ﴾ [الحجر: ١].

فهذه جمل ابتدائية لا محل لها من الإعراب، أي لا تقع موقع المفرد، ووراء كل واحدة منها دلالة، يبينها السياق؛ لتكون نصًا في غرض معين.

ونبدأ بالجملة الخبرية الأولىٰ التي لا مثيل لها في الكتاب كله، وهي قوله -تعالىٰ-: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾، وموقف الجمل التي بعدها منها، كما يأتي:

جملة "ذلك الكتاب" جملة خبرية، فاسم الإشارة ذا مبني علىٰ السكون في محل رفع مبتدأ، واللام للبعد، والكاف للخطاب، و"الكتاب" خبر عن اسم الإشارة "ذلك"، واسم الإشارة "ذلك" في كلام البلاغيين يفيد التعبير به: كمال العناية بتمييزه

أكمل تمييز، وهنا نلحظ في "ذلك الكتاب" التوسل ببعده إلىٰ التعظيم وعلو الدرجة، كما أن تعريف الخبر باللام يدل علىٰ الحصر، وبناء عليه يكون معنىٰ الجملة: ذلك الكتاب الذي يستأهل أن يسمىٰ كتابًا، وهذا من التحدي الذي يدفع، ويدحض حجج المشككين، ولذلك جاءت جملة "لا ريب فيه" توكيدًا معنويًا لجملة "ذلك الكتاب" والتوكيد المعنوي في الجمل هو: أن تختلف الجملتان لفظًا ومفهومًا، ولكن يلزم من ثبوت معنىٰ إحداهما ثبوت معنىٰ الأخرىٰ، وجاء ذلك هنا بين جملة "ذلك الكتاب" وجملة "لا ريب فيه"؛ لأنه لما بولغ في وصف الكتاب ببلوغه الدرجة القصوىٰ في الكمال بجعل المبتدأ "ذلك" الدال علىٰ التمييز، والرفعة، وعلو المكانة بما لا يدرك كنهها، ثم تعريف الخبر باللام "الكتاب" وكان عند السامع -قبل أن يدقق النظر فيه- مظنة أن يرمىٰ به جزافًا دون تحقيق، أتبعه "لا ريب فيه" نفيًا لذلك التوهم، وهنا لا يصح العطف بين التوكيد المعنوي ومتبوعه؛ لكمال الاتصال بينهما، وهو الذي سماه الشيخ عبد القاهر: الاتصال إلىٰ الغاية، وذكر أن جملة "لا ريب فيه" بيان وتوكيد وتحقيق لقوله "ذلك الكتاب" وزيادة تثبيت له، وبمنزلة أن تقول: هو ذلك الكتاب، هو ذلك الكتاب، فتعيده مرة ثانية لتثبته، وليس يثبت الخبر غير الخبر، ولا شيء يتميز به عنه فيحتاج إلىٰ ضام يضمه إليه، وعاطف يعطفه عليه"(١).

وهذا بخلاف جملة "هدىٰ للمتقين" فإنها توكيد لفظي لجملة "ذلك الكتاب"، والتوكيد اللفظي في الجمل هو: أن تخلف الجملتان لفظًا وتتفقا مفهومًا، ومعنىٰ "هدىٰ للمتقين" أنه بلغ في الهداية درجة لا يدرك كنهها؛ لما في تنكير "هدىٰ" من الإبهام والتفخيم، حتىٰ كأنه هداية محضة، حيث قال "هدىٰ" ولم يقل "هاد" لاشتماله علىٰ البينات التي لوضوحها ونصوع دلالتها يهتدي بها المنصف بأدنىٰ

(١) دلائل الإعجاز ٢٢٧، وينظر: ٢٤٣.

لمحة، وتضمحل معه الشُّبه فلا يتوهم لها صحة، وهذا المعنىٰ ذاته هو المجمل في قوله: "ذلك الكتاب" أي الذي بلغ من الكمال درجة لا تحد ولا تعد، وهذا هو التحدي لمن قالوا عنه: سحرًا، وشعرًا، وهنا ناسب التعبير باسم الإشارة "ذلك" الدال علىٰ علو المنزلة، وارتفاع المكانة بما لا يصلح معها وصف آخر يقلل من شأنه، فجمال الدلالة هنا: هو التمييز الأكمل، والعلو الأمثل، وذلك يتجلىٰ من الجملة بأكملها، وتؤكده الجمل بعدها مرتين توكيدًا معنويًا في جملة "لا ريب فيه"، ولفظيًا في جملة "هدىٰ للمتقين"، وقد جمع التعبير بـ"ذلك" هنا مع معالم القوة، والرفعة، قمة الإيجاز، فجملة "ذلك الكتاب" في صدر القرآن الكريم، وعدم تكرارها في أي موطن آخر منه بهذا البناء المحكم، دلت دلالة قاطعة علىٰ قطع كل كلام يعكس ذلك، ودحض كل افتراء بحجة بالغة، غاية في الإيجاز الذي هو سمت البلاغة، ورأس الأمر وعموده، وذروة سنامه فيها.

وأرىٰ أن اسم الإشارة "ذلك" الدال علىٰ البعد، والعلو، والتميز، فيه العلم الكثير، والأسرار الجمة، والخفايا التي تؤنس النفس وتثلج الصدر، بما يفضي به إلىٰ اليقين، ويؤديه من حسن التبيين، وغير ذلك من الأوصاف التي ذكرها عبد القاهر في اسم الموصول "الذي" كما سبق، فإذا كان اسم الموصول "الذي" فيه هذه الأوصاف واجتلب ليكون وصلة إلىٰ وصف المعارف بالجمل، فإني أرىٰ هذه المنزلة بنمط أبلغ في التعبير باسم الإشارة "ذلك" في مقامه الذي ورد فيه، وسياقه الذي يُجلي أسمىٰ معانيه، ومن ثم وقع في صدارة القرآن الكريم، بعد سورة الفاتحة التي أجملت معاني القرآن الكريم، وهنا بداية التفصيل بعد الحروف المقطعة التي من معانيها: التحدي، يأتي التعبير بـ"ذلك الكتاب" ليقطع قول كل خطيب، ويدحض كل افتراء، ويقتل كل

شبهة، وهكذا يتجلىٰ جمال الدلالة، والسياق يشد أزرها ويقوىٰ عضدها تفصيلًا وتبيانًا.

وهذا جمال الدلالة في ثلاث جمل خبرية في مقدمة السورة، الأولىٰ منها دليل الرفعة والسمو، والثانية تؤكد ذلك بنفي كل ريب، والثالثة تؤكد الأولىٰ أيضًا مع بيان أسباب العلو والرفعة، وثلاثتها فريدة في فواتح القرآن الكريم، متصلة علىٰ ما هي عليه في صدر سورة البقرة، أو منفصلة كل واحدة لحالها، ولكن جملة: "لا ريب فيه" وردت في سياق بعض السور عن يوم القيامة، كقوله -تعالىٰ-: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٍ لَّا رَيۡبَ فِيهِ﴾ [آل عمران: ٩]، وجملة "لا ريب فيه" جاءت خبرًا عن الكتاب في سياق سورة يونس، وليس في أولها، وذلك في قوله -تعالىٰ-: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ أَن يُفۡتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ٣٧].

وورد في القرآن "تنزيل الكتاب" وسأتحدث بعد الانتهاء من جمال الدلالة في الآيات المستهلة باسم الإشارة في مقدمات السور السبع كما سبق ليتجلىٰ الفرق بين البداية بـ"ذلك الكتاب" جملة خبرية، وبين "تلك آيات الكتاب" جملة خبرية أخرىٰ لها دلالة، فلماذا في البقرة قال "ذلك الكتاب" وهنا "تلك آيات الكتاب" مع اختلاف وصف الكتاب في بعض السور، واتفاقه في بعضها.

فهناك قال: "ذلك الكتاب" مؤديًا معنىٰ تامًا له دلالة كما تبيّن، وهنا قال: "تلك آيات الكتاب" في سبع سور، أولها يونس، والفرق البدائي بين ذلك وتلك: أن الأولىٰ للمذكر، والثانية للمؤنث، وكل منهما يفيد البعد، والبُعد يقدر حسب المقام، والسياق إن كان للزمان، أو المكان، أو بعد المنزلة، فكل من ذا، وتا، اسم إشارة مبني علىٰ السكون في محل رفع مبتدأ، واللام للبعيد، والكاف للخطاب، ولما كان الحديث

هناك عن الكتاب جاء التعبير "ذلك الكتاب" ولما كان الحديث هنا عن آيات الكتاب قال: "تلك آيات الكتاب"، والكتاب في الأولىٰ خبر "ذلك الكتاب" تمّ به المطلوب إثباته، والجمل بعده براهين قاطعة بدلالة التعبير به، وهنا "آيات الكتاب" خبر عن "تلك" والكتاب مضاف إليه، وهناك في أول البقرة عبر بـ"الكتاب" إجمالًا لبيان مكانته وإثبات رفعته وبراءته من كل ريب، وليتناسب مع التحدي الواضح في السورة في قوله –تعالىٰ: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ البقرة: ٢٣ ونظائره في غيرها من السور "آيات التحدي".

ولكن لماذا جاء التعبير بعد ذلك بـ "آيات الكتاب" كما في سورة يونس ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ ﴾ [الآية ١]، وفيه يقول الزمخشري: "تلك آيات الكتاب إشارة إلىٰ ما تضمنته السورة من الآيات، والكتاب: السورة، والحكيم ذو الحكمة؛ لاشتماله عليها ونطقه بها، أو وصف بصفة محدثة، قال الأعشىٰ:

وغريبةٍ تأتي الملوك حكيمة قد قلتها ليقال من ذا قالها"(١)

وأضاف الرازي سؤالًا مرداه: أن "تلك" يشار بها إلىٰ الغائب، وآيات هذه السورة حاضرة، فكيف يحسن أن يشار إليه بلفظ "تلك"؟

وأحال إلىٰ ما ذكره في سورة البقرة إجابة عن ذلك، وخلاصته: "لا نسلم أن المشار إليه حاضر؛ لأن الله أنزل الكتاب بعضه بعد بعض، وهناك سور كثيرة نزلت بعد سورة البقرة، وقد يُسمىٰ بعض القرآن قرآنًا، كما أن الله وعد رسوله عند مبعثه أن ينزل عليه كتابًا لا يمحوه الماحي، وقد أخبر الرسول أمته بذلك، ويؤيده قوله –تعالىٰ–: ﴿ إِنَّا

(١) الكشاف ٢/ ٢٢٦.

﴿سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥]، وأفضل ما جاء في جوابه عن ذلك قوله: إن القرآن لما اشتمل علىٰ حكم عظيمة، وعلوم كثيرة، يتعسر اطلاع القوة البشرية عليها بأسرها -والقرآن وإن كان حاضرًا نظرًا إلىٰ صورته، لكنه غائب نظرًا إلىٰ أسراره وحقائقه- فجاز أن يشار إليه كما يشار إلىٰ البعيد الغائب"(١)

وأضاف الغرناطي: أن المقصود بالآيات: "الدلائل والبراهين لمن وُفِّق، وسبقت له الحسنىٰ، وهم المحسنون الذين ذكرهم بعد"(٢).

وليس الأمر علىٰ ما قال الرازي من أن الآيات حاضرة فكيف يشار إليها بـ"تلك" وهي للغائب؛ لأنه ليس المقصود الإشارة المحسوسة وأنها حاضرة أو غائبة، بل هي إشارة إلىٰ بُعد المنزلة، تنبه إلىٰ مكانة هذه الآيات، ويشار إلىٰ الجزء ويراد به الكل، كما كانت تفعل العرب في ذكر الجزء والمراد الكل، وهو من تعبيرات القرآن الكريم أيضًا؛ كقوله -تعالىٰ-: ﴿فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ﴾ [البقرة: ١٤٤]، والمراد بالوجه هنا جملة الإنسان؛ لأنه عندما يستقبل القبلة يتوجه إليها بجميع جسده، وليس بالوجه فقط، فهنا ذكر الآيات "تلك آيات الكتاب" في بعض السور، والمقصود كل الآيات التي اشتمل عليها الكتاب الكريم؛ لدلالة البعض علىٰ الجميع، كما يسمىٰ بعض القرآن قرآنًا.

ومن ثمّ يتجلّىٰ جمال الدلالة في هذه الجملة الخبرية "تلك آيات الكتاب" ونظائرها في سور: يوسف، والرعد، والحجر، والشعراء، والقصص، ولقمان، بعد الفواتح التي بدأت بها كل سورة.

---

(١) تفسيره ١٧/ ١٨٣، ٢/ ١٤ بتصرف واختصار.

(٢) البرهان في تناسب سور القرآن تحقيق: محمد شعباني، وزارة الأوقاف بالمغرب، ١٩٩٠م، ٢٧٥.

ويتلخص جمال الدلالة في بيان منزلة الآيات التي تضمنها هذا الكتاب، وما فيها من نفع ظاهر وباطن يتناسب مع نعم الله التي قال فيها ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَـٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠]، وهذه الآيات بما فيها من حكم، ومواعظ، وأسرار وحقائق، تهدي للتي هي أقوم، جديرة بأن يعبر عنها بما يفيد علو المكانة وشرف المنزلة.

ولكن إتمامًا لبلاغة هذه الجملة وعلو دلالتها يبقىٰ السؤال: لماذا اختلف وصف الكتاب فجاء "الحكيم" في بعضها و"المبين" في بعضها الآخر؟

جاء الوصف بـ "الحكيم" في آيتي يونس، ولقمان، وهما أول سورة جاء التعبير في جملتها هذه بـ"تلك"، وآخر سورة كذلك، ثم جاء الوصف بـ"المبين" في: يوسف، والشعراء، والقصص.

وعند التأمل نجد الفرق اللغوي بين: حكيم ومبين يتجلىٰ في: أن: الحاء والكاف والميم أصل واحد، وهو المنع، وأول ذلك الحكم، وهو المنع من الظلم، والباء والياء والنون أصل واحد وهو بُعد الشيء وانكشافه"(١).

فالحكيم يدل علىٰ الحكمة والإحكام في كل الحقائق والأسرار، والكتاب -كما قال الشيخ محمد رشيد رضا-يوصف بالحكمة في معانيه، والأحكام في مبانيه، وهو حقيق بهداية متدبره وواعية.(٢)

والمبين هو البين الواضح في دلائله وغاياته لكل شيء، كما قال ربنا سبحانه: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾، فالله هو الذي جعله تبيانا، وهو الذي جعله حكيما، ولذلك قيل التقدير: حكيم قائله من باب التجوز في الإسناد، وهو الذي

(١) مقاييس اللغة لابن فارس: حكم، بين.
(٢) ينظر: تفسير المنار ١١/ ١١٨.

يضع كل شيء في موضعه، وبيّن الشيخ محمد رشيد الفرق بينهما في تفسيره قول الله –تعالىٰ-: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [يوسف: ١] قائلًا: "فاتحة هذه السورة هي فاتحة سورة يونس إلا وصف القرآن بـ"المبين" هنا، وبـ "الحكيم" هنالك، وهما في أعلىٰ ذروة من البيان وأقصىٰ مدىٰ من الحكمة والإحكام، اختير في كل من السورتين ما يناسبهما، فسورة يونس موضوعها: أصل الدين، وهو توحيد الألوهية والربوبية، وإثبات الوحي والرسالة بإعجاز القرآن والبعث والجزاء، وهي من الحكمة، وهذه –أي سورة يوسف–موضوعها: قصة نبي كريم، تقلب في أطوار كثيرة، كان قدوة خير، وأسوة حسنة فيها كلها، فالبيان بها أخص"(١)

وفي بناء سورة يونس ما يدل علىٰ اشتماله علىٰ الحكمة؛ لأنها تتحدث عن إبطال شبههم، وتحديهم، ودعوتهم إلىٰ تصديقه.

أما سورة يوسف فمقصودها: وصف الكتاب بالإبانة لكل ما يوجب الهدىٰ لما ثبت فيما مضىٰ ، وقصة يوسف وخاصة بيان الرؤيا –أي تأويلها–خير دليل علىٰ ذلك، فناسب هناك الوصف بـ(الحكيم) وهنا بـ(المبين).

وسورة لقمان مقصودها: إثبات الحكمة، وقصة لقمان فيها خير دليل علىٰ ذلك، ويقصد منها: بيان الموافقة بين ما جاء به القرآن من الحكمة المنزلة، وما جاءه به لقمان الحكيم من الحكمة المأثورة عنه؛ إذ كان يدعو إلىٰ الإيمان بالله، ويأمر بمكارم الأخلاق.(٢)

وكذا كل من الشعراء والقصص تنوه بشأن القرآن وحس بيانه، وما فيه من القصص، وهذا يناسبه وصف الكتاب بـ"المبين".

---

(١) السابق ١٢/ ٢٠٧.

(٢) ينظر: النظم الفني في القرآن للشيخ عبد المتعال الصعيدي، ١٣٧، ١٤٩، ٢٣٩.

ومقصود الشعراء: أنه بيّن في نفسه، مبين لكل ملتبس.

ومقصود القصص: التواضع لله المستلزم لرد الأمر كله إليه ... المظهر للخفايا علىٰ لسان من لم يتعظ قط. [(١)]، وهذا مما يتناسب معه الإبانة، ومن هنا تجلىٰ أن كل وصف كان في موضعه الأخص به؛ بحيث لا يصلح أحدهما في موضع الآخر؛ لأنه كلام من ليس كمثله شيء.

وجمال الدلالة يعبر عن هذا الإحكام الذي تم تفصيله في السورة التي صُدّر بها، كما أنه يعبر عن هذا البيان الذي تجلىٰ في سياق السور التي صُدّر بها، ولكل سورة مفتاح يناسبها، ويتواءم مع موضوعاتها المفصلة لمقصودها الأعظم، فالحكيم من الإحكام، والمبين من الإبانة، وكل ذلك ينطبق علىٰ بيان الله، ولكن بعض السور غلب عليها ما يتعلق بالأحكام كأمور العقيدة والشريعة، وبعضها يكون قائمًا علىٰ موضوعات تحتاج إبانة وتوضيحًا، فكان لكل ما يناسبه، وتلك دلالة كل وصف تنبثق من سياقه وتجتمع جملة في وصف يوافق التفصيل الذي أقيمت عليه السورة.

أما أول الرعد فلم يوصف الكتاب بشيء، ولكن عطف عليه جملة أخرىٰ تعضد رفعة آياته، وعلو شأنها، وأنها الجديرة بأن تسمىٰ الآيات لا غيرها، والوقف علىٰ قوله "الكتاب" فيه هز لأوتار القلوب؛ لأن السورة مملوءة بالآيات الساطعة والبراهين القاطعة، ففيها الحديث عن: رفع السماوات بغير عمد ترونها، وفيها الحديث عن الأرض يختلف إخراجها مع تجاورها، وسقيها بماء واحد ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ﴾، وفيها ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ﴾ إلىٰ آخر العجائب التي أقيمت عليها السورة، فالكتاب في صدر هذه السورة لا يحتاج وصفًا، وعدم وجود الوصف فيه دل علىٰ أن فيه كل الأوصاف من الحكمة والإبانة، وجميع أوصاف الكمال التي لا تحد بوصف واحد، لذل عطف عليه جملة أخرىٰ تثبت أنه الحق لا غيره، ويتجلىٰ جمال

---

(١) ينظر: مصاعد النظر ٢/ ٢٢٤، ٣٢٦.

الدلالة على عدم الوصف هنا بقمة الكمال، وأنه لا حق إلا ما أنزله الله، وفي هذا دحض لافترائهم، وتفنيد لضلالهم.

وكذلك الشأن في آية الحجر، لم يوصف فيها الكتاب بشيء بل عطف عليه قوله -تعالى-: ﴿ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴾، فالقرآن هو الذي تم وصفه، والكتاب بقي على إطلاقه ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾.

فالوقف على الكتاب، وعدم وصفه هنا يدل على الكمال المطلق، ووصف القرآن بالمبين، وتنكيره "وقرآن" فيه معنى الرفعة والتفخيم، والبيان في آيات السورة جلي، وأعلاه في السورة قوله -تعالى-: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]، وقوله -تعالى-: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴾ [الحجر: ١٦] وكذلك الحديث عن الرياح وعن خلق الإنسان وخلق الجان، إلى أن قال -سبحانه-: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾ [الحجر: ٨٧]، والأمر بالجهر بالدعوة: ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الحجر: ٩٤]، وختام السورة كله إلى أن قال: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ [الحجر: ٩٩].

فالوقف على الكتاب فيه السمو، والرفعة، والكمال المطلق، ثم يعطف عليه "وقرآن مبين" بهذا الوصف ليتناسب مع سياق السورة الذي دل عليه مقصودها، وفيه يقول البقاعي: "وصف الكتاب بأنه في الذروة من الجمع للمعاني الموضحة للحق من غير اختلاف أصلًا "(١)

لكن جاء عكس ذلك في فاتحة سورة النمل، فقدم القرآن، وأخر الكتاب، قال -تعالى-: ﴿طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [النمل: ١].

وهي الآية الوحيدة التي بنيت بهذا الشكل "تلك آيات القرآن"، فالإشارة هنا أيضًا فيها العلو، والرفعة، وأنها الآيات التي ليس فوقها آيات، ولكن لماذا قال بعدها هنا

(١) مصاعد النظر ٢/ ٢٠٥.

"وكتاب مبين" عكس ما سبق في الحجر؟ نلحظ في الحجر أنه من عطف العام على الخاص؛ لأن الآيات المشار إليها آيات السورة على أرجح الأقوال، وهنا في النمل من عطف العام على الخاص أيضًا بطريقة أخرى، فالكتاب المبين هنا عام؛ لأنه القرآن كله، أما آيات القرآن فخاص لأن المقصود التي بنيت عليها هذه السورة.

وافترض الزمخشري هذا السؤال الذي نبحث عنه فقال: فإن قلت: ما الفرق بين هذا وبين قوله ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر: ١]، قلت: لا فرق بينهما إلا ما بين المعطوف والمعطوف عليه من التقدم والتأخر، وذلك على ضربين:

ضرب جاري مجرى التثنية لا يترجح فيه جانب على جانب، وضرب فيه ترجح، فالأول نحو قوله: ﴿وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾، ومنه ما نحن بصدده، والثاني نحو قوله -تعالى-: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾"(١)

أي أن الواو لمجرد الجمع بين المتعاطفين، لا تقتضي ترتيبًا ولا تعقيبًا، فهما جملتان كل منهما لها دلالة، والجمع بينهما تعظيم لتلك الدلالة، فلما تقدم الكتاب هناك كان معرفًا "تلك آيات الكتاب"، ولما تقدم القرآن هنا كان أيضًا معرفًا "تلك آيات القرآن"، فالمقدم منهما على أي وضع معرف، وتعريفه يدل على كماله المطلق، والمؤخر منهما، والمنكر منهما منون، وهذا تفخيم أيضًا، وبعض العلماء يرى أن تقديم الكتاب؛ لأنه ذكر في السورة أكثر، وتقديم القرآن هنا؛ لأنه ذكر في هذه السورة أكثر.(٢)

ولكن أراها ناحية شكلية لا يبنى عليها حكم، ومعلوم أن التقديم فيه أسرار جمة وفوائد تؤنس النفس، والعرب إنما يقدمون الذي بيانه أهم لهم، وهم بشأنه أعنى، وإن كانا جميعًا يهمانهم ويعنيانهم، فلا بد من سبب يبين تقديم ما قدم، وأرى أن تقديم

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٤٦.

(٢) ينظر: لمسات بيانية فاضل السمرائي ١/ ٩٥٣.

القرآن في آية النمل؛ لاتصالها بخاتمة الشعراء قبلها، ودحض افترائهم، وبيان أن هذا قرآن لا تنطبق عليه أوصاف الشعر الذي تزعمونه فيه، فنفىٰ في الشعراء كونه شعرًا بقوله: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلۡغَاوُۥنَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤]، فتقدم القرآن هنا بوصفه، ومسماه هذا "قرآن" حتم واجب لإبطال مزاعمهم نحوه، ثم يأتي قوله "وكتاب مبين" تعضيدًا لهذه الفخامة، وهذا الفرق بينه وبين ما يزعمونه، وهذا من تناسب السور وترابط معانيها.

أما في الحجر فقدم "الكتاب" علىٰ القرآن لمناسبة الآيات الباهرات في السورة قبلها، ومناسبة ختامها بقوله -سبحانه-: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٞ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [إبراهيم: ٥٢]، وآيات الكتاب تتناسب مع هذا الإنذار، وآيات القرآن هناك تتناسب مع الفرق بينه وبين الشعر؛ لأنهم كانوا يذكرونه باسم القرآن، وليس الكتاب.

فجمال دلالة التقديم في كل من السورتين؛ للتناسب مع السورة قبلها، والعطف بينهما يدل علىٰ خصوص الكمال في آيات كل سوره، وعمومه للكتاب كله.

وهذه نماذج من الجمل الخبرية في السور التي استهلت بحروف التهجي، وكلها جمل ابتدائية اسمية.

وفي فواتح القرآن الكريم جمل خبرية أخرى كثيرة، بعضها اسمية وبعضها فعلية، وكلها قائمة علىٰ دلالة يفيدها السياق، جمعها السيوطي في بيان الأقسام العشرة التي افتتح الله -عز وجل- بها سور القرآن الكريم، وسبق أن ذكرنا منها سور الثناء علىٰ الله بما هو أهله، وهي السور الخمس التي استهلت بالحمد.

ومن هذه الأنواع: الجمل الخبرية، جاءت في ثلاث وعشرين سورة، هي: يسألونك عن الأنفال، براءة من الله، أتىٰ أمر الله، اقترب للناس حسابهم، قد أفلح

المؤمنون، سورة أنزلناها، تنزيل الكتاب، الذين كفروا، إنا فتحنا، اقتربت الساعة، الرحمن علم القرآن، قد سمع الله، الحاقة، سأل سائل، إنا أرسلنا نوحا، لا أقسم في موضعين، عبس، إنا أنزلناه، لم يكن، القارعة، ألهاكم، إنا أعطيناك. فتلك ثلاث وعشرون سورة(١).

والجمل في هذا الفواتح بعضها اسم، وبعضها فعل، أما وقد بدأت بالجمل الاسمية في سورة الحمد، والإشارة إلىٰ الكتاب، واختلاف أوصافه، وتقديم بعض الجمل علىٰ بعض، فإني أكمل بعض الفواتح الخبرية بالجمل الاسمية؛ حيث لم يتبق منها سوىٰ ثنتي عشرة جملة في فواتح ثنتي عشرة سورة، بعضها يشبه بعضًا، ويمكن الاكتفاء بواحدة منه.

من هذه الجملة قوله -تعالىٰ-: ﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [التوبة: ١].

كلمة "براءة" لم تذكر في القرآن سوىٰ مرتين، إحداهما في شاهدنا هذا، والثانية في قوله -تعالىٰ-: ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴾ [القمر: ٤٣].

الوقوف علىٰ جمال دلالة هذه الجملة الخبرية الابتدائية التي لا محل لها يستدعي بحث جوانبها مبنىٰ ومعنىٰ.

فهي من جهة المبنىٰ "مصدر سماعي لفعل برأ يبرأ من باب فرح، بمعنىٰ قطع العصمة، ولم يُبق ثمة علاقة أو صلة، أو بمعنىٰ التباعد، وزنة فعالة بفتح الفاء وتعرب:

(١) الإتقان ٢/ ٢٨٣.

خبرًا لمبتدأ محذوف، أي هذه براءة و(من) لابتداء الغاية متعلق بمحذوف، وليس بصلة، كما في قولك: برئت من الدين.(١)

ومن جهة المعنىٰ: هذه براءة واصلة من الله ورسوله إلىٰ الذين عاهدتم من المشركين، ويجوز أن تكون: براءة مبتدأ لتخصيصها بصفتها، والخبر: إلىٰ الذين عاهدتم، والمعنىٰ: إن الله ورسوله قد برئا من العهد الذي عاهدتم به المشركين، وأنه منبوذ إليهم .." (٢)

والتعبير بالمصدر يعطي قوة وتأصيلًا، ويجعل هذا الاسم للسورة (براءة) محيطًا بالمسميات الأخرىٰ التي أطلقت عليها، وكأنها شرح لها، جمع كثيرًا منها الزمخشري، فقال: "لها عدة أسماء: براءة، التوبة، المقشقشة، المبعثرة، المشردة، المخزية، الفاضحة، المثيرة، الحافرة، المنكّلة، المدمدمة، سورة العذاب؛ لأن فيها التوبة علىٰ المؤمنين، وهي تقشش من النفاق، أي تبرئ منه، وتبعثر عن أسرار المنافقين؛ أي تبحث عنها وتثيرها، وتحفر عنها وتفضحهم، وتنكلهم، وتشرد بهم، وتخزيهم، وتدمدم عليهم ..(٣)

فهذه المعاني كامنة فيما صدرت به السورة؛ والأعظم من ذلك أنها "من الله ورسوله" فهذا قمة الخزي لهؤلاء المتبرئ منهم، وتسمىٰ براعة استهلال أيضًا؛ لأن براعة الاستهلال تعني أن يكون الاستهلال جامعًا لقضايا السورة، ومؤلفًا لها في كلمة أو عبارة، ولا يشترط أن تكون البراعة في الأمور الحسنة أو الثناء والمدح فقط، بل ينطلق علىٰ كل ما يجمع أصول المعاني ويحيط بمعالم السياق.

---

(١) الجدول في إعراب القرآن، ١٠/ ٢٧٧.

(٢) الكشاف ٢/ ١٧٢ بقدر من الاختصار.

(٣) السابق ١/ ١٧١.

وجملة خبرية كهذه تخلو من ضروب التأكيد، بدل مضمونها وموقعها، والسياق الذي تصدرته، والموضوعات التي هيمنت عليها، يدل هذا علىٰ جمال الدلالة فيما هو مداد إثباته بطريق الخبر المعبر عن الواقع.

وإذا كان مقصودها-**كما قال البقاعي**: معاداة من أعرض عما دعت إليه السورة الماضية من اتباع الداعي إلىٰ الله في توحيده واتباع ما يرضيه، وموالاة من أقبل عليه.(١)، فإن المعادة لله ورسوله، خزي، ونكال، وما يترتب عليها من فضائح الدنيا والآخرة، ومن ثم خلت مقدمتها من البسملة، وعلل العلماء ذلك بأن اسم الله سلام وأمان، فلا يكتب في النبذ والمحاربة، وقيل إنها هي والأنفال قبلها سورة واحدة من الطوال؛ لأنهما معًا مائتان وست، فهما بمنزلة إحدىٰ الطوال؛ لأن في الأنفال ذكر العهود، وفي براءة نبذ العهود.(٢)

فهي جملة تامة أدت معنىٰ يجمع معالم السورة، ويدل علىٰ ما فيها من قضايا وموضوعات يعرفها بأدنىٰ لمحة أولو الألباب، ويقفون علىٰ ما فيها من زجر ووعيد وتهديد يقتضي التوبة إلىٰ الله، والرجوع إليه، والصدق معه، فنبذ العهد كان سببًا في إعلام التبرؤ الذي لا وصال بعده.

ويجري في هذا الباب من جهة اللغة قوله -تعالىٰ-: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النور: ١].

فـ"سورة" مرفوعة أيضًا بإضمار هذه سورة أنزلناها، ولا ترفعها براجع ذكره؛ لأن النكرات لا يبتدأ بها قبل أخبارها إلا أن يكون ذلك جوابًا، ألا ترىٰ أنك لا تقول: رجل قام، وإنما الكلام أن تقول: قام رجل، وقُبح تقديم النكرة قبل خبرها؛ أنها توصل ثم يخبر عنها بخبر سوىٰ الصلة"(٣)

(١) نظم الدرر ٣/ ٢٥٥.

(٢) ينظر: الكشاف ٢/ ١٧١.

(٣) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٤٤.

فهي خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هذه، وجملة: أنزلناها في محل رفع نعت لها، وهذا ضرب من إيجاز القول وبلاغة التعبير، وتنكيرها يدل علىٰ اتساعها وشمولها لكل ما فيها من آيات بينات وأمور واضحات من الحدود، والأحكام، والآداب، والمواعظ، والأخلاق التي حثت عليها، ودعت إليها، وكلها أمور عالية؛ لأنها عظيمة من العظيم الذي قال: ﴿أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾".

ففيها عظمة العظيم، وقوة الحكيم، ولو قال: هذه سورة لكانت إشارة محددة لا عظمة فيها ولا علو، وخلوها من أدوات التأكيد يجعلها ضربًا من ضروب الخبر الابتدائية، التي تلقىٰ إلىٰ خالي الذهن، وهي بذلك أعلىٰ وأمكن لدىٰ النفوس من أن تؤكد، أو أن يشار إليها.

وفي ذلك يقول السرخسي: "سورة أنزلناها وفرضناها " أي قطعنا الأحكام قطعًا، وفي هذا الاسم -يقصد الفرض-ما ينبئ عن شدة الرعاية في الحفظ؛ لأنه مقطوع به، وما ينبئ عن التخفيف؛ لأنه مقدر متناه كيلا يصعب عليها أداؤه"(١)، فما فيها: إيجاب وإلزام يتناسب مع فخامة البداية وعظمة التنكير التي يجلي السياق رفعتها ويبرز مكانتها.

---

(١) أصول السرخسي ١/ ١١٠.

ومن الجمل الخبرية التي جمعت معالم لا حدّ لها، وأحاطت بأبرز معالم فريق الكفر وفريق الإيمان، وأصدرت في مقدمة السورة حكمًا لكل من الفريقين، ثم فصّلته في سياق السورة بالأدلة والبراهين، الجملة التي استهلت بها سورة محمد -صلَّىٰ الله عليه وسلَّم-وهي قوله -تعالىٰ-: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٖ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ﴾ [محمد: ١، ٢].

فـ"الذين" مبتدأ، وجملة "كفروا" صلة "وصدوا" عطف علىٰ "كفروا" و" عن سبيل الله" متعلقان بـ "صدوا" و"أضل أعمالهم" فعل وفاعل مستتر يعود علىٰ الله -تعالىٰ-، ومفعول به، والجملة خبر الذين"(١)، وجملة "كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم" خبر "الذين" الثانية.

لم تستهل سورة في القرآن الكريم بمثل ما استهلت به سورة محمد بالحديث عن الذين كفروا، ولكن ورد الحديث عنهم بمثل هذا الوصف "كفروا وصدوا عن سبيل الله" في سياق السورة مرتين، أخبر عنهم في الأولىٰ بأنهم "لن يضروا الله شيئا وسيحبط أعمالهم"، وذلك في قوله -تعالىٰ-: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ [محمد: ٣٢]، وأخبر عنهم في الثانية بقطع نفي الغفران، فقال -تعالىٰ-: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ﴾ [محمد: ٣٤].

فكل آية من هذه الآيات الثلاث تخبر عنهم بخبر يناسب صنيعهم، وتسمية السورة بهذا الاسم "محمد" يتناسب مع وجوب جهادهم، وهو -صلَّىٰ الله عليه وسلَّم- سيد

(١) إعراب القرآن وبيانه محيي الدين الدرويش، دار اليمامة، حلب، ط٩، ٢٠٠٥م، ٧/ ١٨٩.

المجاهدين المدافعين عن دين الله، كيف لا وهو المسند إليه البلاغ، والمأمور به كما قال ربنا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: ٦٧] وتسمىٰ أيضًا سورة القتال؛ لأن الحديث فيها عن أهل الضلال، ومقصودها الأعظم: إدامة الجهاد، حفاظًا علىٰ دين الله، ولكن معظم مقصودها الشكاية من الكفار في إعراضهم عن الحق، وذكر آداب الحرب، والأسرىٰ، وحكمهم، والأمر بالنصرة للإيمان (١)، وهذا ونحوه مما بنيت عليه السورة يتناسب مع اسميها، ولا سيما الاسم الأول "محمد" فهو خير من يجاهد، وخير من يحافظ علىٰ الحقوق، وخير من يعامل الأسرىٰ، فلما كانت السورة مجلية لذلك سميت بذلك؛ لأنها أخلاق القرآن التي كان ملتزمًا بها، والتي قالت فيها السيدة عائشة: "كان خلقه القرآن".

والبداية في أول السورة بـ"الذين كفروا" جاءت خالية من التأكيد بخلاف الموقفين داخل السورة، صدرت الجملة بـ"إن الذين كفروا " وخلوها من التأكيد في فاتحة السورة دليل علىٰ إلقاء الخبر علىٰ خالي الذهن؛ لأن حرص النبي كان جليًا في هداية القوم، وكانت تذهب نفسه عليهم حسرات، ولم يكن يتمنىٰ لهم ضلال الأعمال، ولم يكن ينتظر منهم الصد عن سبيل الله، والتعبير باسم الموصول هنا يدل علىٰ معرفته بالقوم، وفيه تشويق إلىٰ وجه بناء الخبر، ومن ثم يكمن جمال دلالة الجملة بمساعدة السياق كله قريبه وبعيده في هذا التشويق، ثم ارتقىٰ هذا المعنىٰ في سياق السورة، تارة يتحدث عنهم ويخبر عن أحوالهم كما هنا أول السورة "أضل أعمالهم"، وزاد هذا المعنىٰ في الآية الثامنة في قوله -تعالىٰ-: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ [٨]،

(١) ينظر: بصائر ذوي التمييز للفيروزابادي ١/ ٢٩٩، ومصاعد النظر ٢/ ٤٨٥.

ثم بيّن بعدها أنهم لا مولىٰ لهم، وأن النار مثوىٰ لهم، وأنهم لا ناصر لهم، وسقوا ماء حميمًا فقطع أمعاءهم، حتىٰ جاءت الآية الثانية والثلاثون التي نص فيها عليهم وحكم بأنهم ﴿لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ فكانت هذه خبرًا عن إحباط الأعمال، وأكدت بـ"إن" لأنه وعيد "سيحبط أعمالهم" وأخبر بعدها بأن من مات منهم علىٰ الكفر "فلن يغفر الله لهم" وهي الآية الثانية التي جاء ذكر الكفار فيها بعد فاتحة السورة بمثل ما جاءت به فاتحة السورة من الكفر والصد عن سبيل الله، أي في الجمع بين الوضعين، وفي مقابل كل ذلك كان الحديث عن المؤمنين بما يناسبهم؛ لأن فاتحة السورة فيها تقابل بين أهل الباطل وأهل الحق، فأهل الباطل كفروا وصدوا، وأهل الحق آمنوا وعملوا الصالحات، وآمنوا بما نزل علىٰ محمد وهو الحق من ربهم، فالأولون أضل أعمالهم، وهؤلاء كفّر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم، وبدأ بالكفار؛ لأنهم المعنيون ببيان هذه الأحكام في بداية السورة، وخلال سياقها، وشرع القتال والجهاد من أجلهم، ومن ثم فهذه براعة استهلال تتجلىٰ دلالتها في مناسبة الغرض المقصود الذي استجمع معالمه في فاتحة السورة، وصدرت الأحكام فيها علىٰ فريق الكفار بما يناسب أعمالهم، وفريق المؤمنين بما يناسب صبرهم وجهادهم.

فكما ذكر في حق الكفار "أضل أعمالهم" قابله في حق المؤمنين بقوله ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ [٤] بينما تكرر ضلال الأعمال في حق الكفار مرتين في السورة في الآية الأولىٰ، وكذا الثانية مع زيادة: فتعسًا لهم، كما قال -تعالىٰ-: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾، والتعس هو: الهلاك والشقاء، أو كما قال الراغب: "التعس: ألا ينتعش من العثرة وأن ينكسر في سفال، قال -تعالىٰ-: فتعسًا لهم"(١)، وتلك زيادة في

(١) المفردات: "تعس".

النكال، ومن خلال سياق السورة يتجلىٰ أنه كلما ارتقت أحوال المؤمنين في النصر والغفران ومعية الله، ارتقت أحوال الكافرين أضعافها في الهلاك وإحباط الأعمال، وجاء الحديث عن إحباط أعمالهم في السورة ثلاث مرات، مرتين بالماضي، الأولىٰ في قوله -تعالىٰ-: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ [الآية ٩]، والثانية ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ [الآية ٢٨]، والثالثة ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ [الآية ٣٢]، وهنا عبر بالسين الدالة علىٰ الاستقبال؛ لأن صدهم يتجدد، ولن يتوقف؛ لأنهم شاقوا الرسول، وقطعوا بمشقتهم أي بمخالفتهم، فلن يهتدوا إذًا أبدًا، لذلك وعد الله بأنه سيحبط أعمالهم كلما صدرت، ويقول الشيخ: محمد الطاهر بن عاشور: "وحرف الاستقبال هنا لتحقيق حصول الإحباط في المستقبل، وهو يدل علىٰ أن الله محبط أعمالهم من الآن؛ إذ لا يعجزه ذلك حتىٰ يترصد به المستقبل.."(١).

وهنا رباط بين إضلال أعمال في أول السورة، وإحباط أعمالهم المتكرر في سياق السورة، فالإضلال إبطال، والإحباط إبطال أيضًا ولكنه إبطال لا يتحمل الإصلاح بعد ذلك، والوعد الأخير يتناسب مع تجدد أعمالهم الفاسدة، وفيه يقول البقاعي: "... ومن المكائد التي يريدون بها توهين الإسلام، وتجعل تدميرهم بها في تدبيرهم، وإن تناهوا في إحكامها، فلا تثمر لهم إلا عكس مرادهم"(٢).

(١) التحرير والتنوير ٢٦/ ١٢٦.

(٢) نظم الدرر ٧/ ١٧٧.

ومن ثم يتجلىٰ جمال دلالة التشويق إلىٰ بناء الخبر في الحكم علىٰ هؤلاء، من خلال ترابط السياق في السورة كلها، وما جاء في هذه السورة إنما هو تفصيل للإجمال الذي ختمت به السورة قبلها، وهكذا تترابط سور القرآن وآياته، بحيث تكون كل آية مقدمة للتي بعدها، مهيئة لها، كما هو بيّن من خلال الشواهد التي وقفت عندها.

وفي القرآن الكريم أربع فواتح مستهلة بضمير العظمة "إنا"، وهي قوله -تعالىٰ-: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١]، وقوله -تعالىٰ-: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ [نوح:١]، وقوله -تعالىٰ-: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: ١]، و﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١]، وجملة "إنا أرسلنا"، و"إنا أنزلنا" وإن ذكرت في سياق سور أخرىٰ، إلا أنني معنيّ الآن بما جاء في فواتح السور، وعلاقته بها؛ لتكون دلالة الجملة جامعة لمعالم السياق.

أما "إنا فتحنا لك فتحا مبينا" لم تأت إلا في صدر سورة الفتح، وأكتفي بدراستها جملة خبرية مؤكدة بضمير العظمة؛ لأن هذا الحدث عمل عظيم لا يكون إلا بقدرة العليم الخبير، وفيه يقول الغرناطي: "فعرف -تعالىٰ-نبيه -صلَّىٰ الله عليه وسلَّم- بعظيم صنعه له، وأتبع ذلك بشارة المؤمنين العامة، فقال -تعالىٰ-: "هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين .." والتحمت إلىٰ التعريف بحال من نكث من مبايعته -صلَّىٰ الله عليه وسلَّم- وحكم المخلّفين من الأعراب، والحض علىٰ الجهاد، وبيان حال ذوي الأعذار، وعظيم نعمته -سبحانه- علىٰ أهل بيعته .."(١) فناسب ذلك أن تكون البداية بضمير العظمة، وهذا يتناسب مع نتائج الجهاد في سورة محمد السابقة

(١) البرهان في تناسب سور القرآن، ٣٠٨.

لها، فهذه ثمرة من ثماره العظيمة وأعلىٰ ثمرة فيها "الفتح الأعظم" وفي ذلك يقول البقاعي: "فافتتح هذه بقوله علىٰ طريق النتيجة لذلك بقوله مؤكدًا إعلامًا بأنه لا بد منه، وأنه مما ينبغي أن يؤكد لابتهاج النفوس الفاضلة به، وتكذيب من في قلبه مرض، وهم أغلب الناس في ذلك الوقت: "إنا" بما لنا من العظمة التي لا تثبت لها الجبال "فتحنا" أي أوقعنا الفتح المناسب لعظمتنا لكل متعلق بالأسباب المنتجة له من غير شك، ولذلك عبر عنه بالماضي "(١).

وهذا الخبر المؤكد بضمير العظمة يتناسب مع عظمة الجهاد، ودرجة المؤمنين ومنزلتهم عند ربهم، ودركة الكافرين وإحباط أعمالهم في السورة السابقة، ومكانة الفتح الأعظم في هذه السورة، فالتأكيد هنا يدل علىٰ عظمة الخبر، وتجلي عظمة المخبر، والمخبر له.

ولما كانت أعمال الجهاد والذب عن الدعوة، وإعلاء شأنها في مواجهة الصادين عن سبيل الله، لما كان الأمر كذلك جعله علة للمغفرة الكاملة: "ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما"، وقوله -تعالىٰ- "لك" يفيد التخصيص بهذه البشارة وإن كانت اللام للتعليل لأنها منحة، ودائمًا تأتي المنح بعد المحن، والمحن سبقت في سورة القتال قبلها، والتعبير بالماضي للدلالة علىٰ تحقق الوقوع، وهذا يتناسب مع عظمة الحق القائل "إنا" أي بما لنا من العظمة، ويقول الرازي: "أخبر بصيغة الماضي إشارة إلىٰ أنه أمر لا دافع له، واقع لا رافع له"(٢).

---

(١) نظم الدرر ٧/ ١٨٤.

(٢) تفسيره ٢٨/ ٧٧.

وفيه دلالة علىٰ النصر والظفر، وإن لم يتحقق بعد، وفي لغة العرب: التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي سائغ مشهور، وفي القرآن منه كثير، وتتجلىٰ دلالته هنا في تحقيق البشارة تعضيدًا، وتقوية، وتثبيتًا بأن نصر الله وعد لا خلف فيه ... وتقديم "لك" علىٰ المفعول المطلق يشعر بمكانة النبي -صلَّىٰ الله عليه وسلَّم-.

وجمال الدلالة في الجملة الأولىٰ من فاتحة السورة، بهذا البناء الذي بنيت عليه ينسحب علىٰ تكوين السورة بما اشتملت عليه من أمور عظام، يحقق المقصود من "وعده -صلَّىٰ الله عليه وسلَّم- بالفتح والغفران، وإنزال السكينة علىٰ أهل الإيمان، وإيعاد المنافقين بعذاب الجحيم، ووعد المؤمنين بنعيم الجنات، والثناء علىٰ سيد المرسلين، وذكر العهد، وبيعة الرضوان، وذكر ما للمنافقين من الخذلان، وبيان عذر المعذورين، والمنة علىٰ الصحابة بعدم الظفر عليهم من أهل مكة ذوي الطغيان، وصدق رؤيا سيد المرسلين علىٰ حقيّة الرسالة، وشهادة الملك الديان، وتمثيل حال النبي والصحابة بالزّرع والزّراع في البهجة والنضارة وحسن الشأن"(١).

كل هذه دلائل في السورة الكريمة، وكل موقف منها له سياقه وجماله الذي يحقق دلالته، ويتناسب مع عظمة البداية "إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا" والتصريح باسمه -صلَّىٰ الله عليه وسلَّم- في النهاية ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾ [الآية ٣٩]، وبها ختمت السورة الكريمة ليدور أولها علىٰ آخرها، ويلتقي آخرها مفصحًا عما بشّر به أولها، وما بين ذلك دلائل علىٰ هذه البداية العظيمة، والخاتمة الجليلة، وأسرار التعبير خير شاهد علىٰ جمال الدلالة والسياق في زوايا النص القرآني

(١) بصائر ذوي التمييز، ١/ ٣٠٠.

مع استهلال السورة بالخبر العظيم مؤكدًا بضمير العظمة، وختامها بالتصريح باسم النبي الكريم تحقيقًا لكل وعد فيها، ولعظمة البداية التي استهلت بها.

ض وأيضًا التعبير بالجملة الخبرية الاسمية في مقام التعظيم والتفخيم، وإحقاق الحق، وإزهاق الباطل، وإنصاف الخلائق، والتأكيد بأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن وعد الله حق، وهي تواصل مسيرة الإنذار الذي تجلىٰ في السورة السابقة، ولكن الوقع الصوتي لها هنا يصور الواقع بكل ما فيه من قوة وحكمة، ولذلك "روىٰ أحمد بن حنبل أن عمر بن الخطاب قال: خرجت يومًا بمكة أتعرض لرسول الله قبل أن أسلم، فوجدته قد سبقني إلىٰ المسجد الحرام، فوقفت خلفه فاستفتح سورة الحاقة، فجعلت أعجب من تأليف القرآن، فقلت: هذا والله شاعر -أي قلت في خاطري- فقرأ: "وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون" قلت: كاهن، فقرأ: "ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون تنزيل من رب العالمين" إلىٰ آخر السورة، فوقع الإسلام في قلبي كل موقع"(١).

فوقعها الصوتي حرك قلوبًا كانت عاتية، وجعلها تلين وتقشعر بمجرد وقع الصوت قبل وقوع الحدث، وبهذه القوة ثبت تنزيه الرسول -صلَّىٰ الله عليه وسلَّم- مما قالوا، بل إنه نفسه لا يدري ما كنهها، فهي فوق طاقة البشر، ولو علم شدة وقعها أحد لعلمه المعصوم -صلَّىٰ الله عليه وسلَّم-فهي كما قال الطبري: "الساعة التي تحق فيها الأمور، ويجب فيها الجزاء علىٰ الأعمال، والحاقة الأولىٰ مرفوعة بالثانية؛ لأن الثانية بمنزلة الكناية عنها، كأنه عجب منها، فقال: الحاقة: ما هي؟

والحاقة الثانية مرفوعة بما، و "ما" بمعنىٰ أي، و "ما" رفع بالحاقة الثانية، ومثله "القارعة ما القارعة"(٢)

---

(١) التحرير والتنوير ٢٩/ ١١٠.

(٢) تفسيره، دار هجر ط١، ٢٣/ ٢٠٥ باختصار.

أي أنها جملة ابتدائية لا محل لها، وجمال الدلالة فيها يكمن في التعظيم والتفخيم، وتصوير الخفي الغامض الذي لم يُر بعد في صورة الواقع، ويحقق ذلك تكرار الاستفهام الدال علىٰ التعظيم في قوله -سبحانه-: "وما أدراك ما الحاقة" وفيها إسناد الفعل إلىٰ الزمان؛ لأنها زمن الأحداث وليست هي الأحداث، وهذا قول الطبري السابق وغيره من العلماء بأنها: الساعة التي تحق فيها الأمور، ومثلها: الواقعة، والطامة، والصاخة، قال هذا كله يوم القيامة الساعة[1]، وازدادت درجة التهويل والتفخيم بوضع الظاهر موضع المضمر، فلم يقل ما هي، بل أعاد اللفظ بقوته وشدة حركته، وفي هذا تصريح بكمال التفخيم وعظمة التهويل لهذا اليوم، وتمييزه أكمل تمييز علىٰ حد قول البلاغيين في التعبير بالإشارة والموصول.

وما من شيء يُعاد بهذه الطريقة إلا وكان المقصود تجلية عظمته، وشدة وقعه، وبيان قوته، وقيل: سميت بذلك باعتبار أن كل إنسان حقيق بجزاء عمله، وقال الزهري: يقال: حاققته فحققته أحقه، أي: غالبته فغلبته، فالقيامة حاقة لأنها تحق كل محاقّ في دين الله بالباطل[2]

وعلىٰ هذا المعنىٰ لا تكون من باب الإسناد المجازي إلىٰ الزمان، بل سميت بحدثها، وأحداثها من باب أن كلا يأخذ ما يستحق جزاء ما قدم.

وسياق السورة يشهد بكل ذلك علىٰ اختلاف وجوهه، فكل آياتها تصور عظمة هذا اليوم، وتجلي من الواقع كثيرًا كما حدث لبعض الأقوام من إهلاك بالطاغية، أي بالصيحة الشديدة، أو بريح سامة لصوتها وقع عاتٍ، إلىٰ أن ختمت السورة ببيان وقع هذا اليوم علىٰ الكافرين، في قوله -تعالىٰ-: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسۡرَةٌ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٥٠ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ ۝٥١ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الحاقة: ٢٠-٥٢].

---

(١) ينظر السابق ٢٣/ ٢٠٦.

(٢) تفسير القرطبي تحقيق: أحمد البرذوني دار الكتب المصرية، ط٢، ١٩٦٤م، ١٨/ ٢٥٧.

وهكذا يتجلىٰ جمال الدلالة والسياق من واقع الجمل الخبرية الابتدائية التي تصدرت سور القرآن الكريم.

ض أما إذا كانت الجملة الخبرية في فاتحة السورة مصدرة بفعل كقوله -تعالىٰ-: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾، وقوله -تعالىٰ-: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾، و﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾، و﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾، و﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، و﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ﴾، و﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾، فإنها تفيد معنىٰ يتناسب مع السياق والمقام الذي تصدرته ببعض النماذج منها، وأبدأ بقوله -تعالىٰ-: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١].

وردت جملة "يسألونك" و"ويسألونك" بالواو، وبغيرها في القرآن الكريم كثيرًا، ولكن لم تستهل سورة أخرىٰ بها غير سورة الأنفال، "والأنفال هي غنائم بدر، والمال المأخوذ من أهل الحرب قهرًا، وأصلها في اللغة الزيادة، وقد فضل بها المسلمون علىٰ سائر الأمم"(١).

والمقام مقام منازعة -حكته كتب التفسير- ومن ثم حسم ربنا القضية، بما يبين مقصود السورة الذي ينشر ظلاله علىٰ السورة كلها، وأثره جلي فيها لمن تدبر آياتها، والموضوعات التي أقيمت عليها من النزاع الذي دار حول الغنائم، وجدالهم في الحق بعد ما تبين، واستجابة الله لاستغاثتهم، وتثبيت الملائكة لهم، وتوليه الدفاع عنهم، وتوهينه كيد الكافرين، وتذكيرهم بنعمه، وقد كانوا قليلًا مستضعفين، وعدم تعذيب

(١) نظم الدرر ٣/ ١٨٣.

المستغفرين منهم، وتصوير الكفار قلة في أعينهم تثبيتًا لقلوبهم، وتصويرهم قلة في أعين الكفار ليقضي الله وعدًا كان مفعولًا، والتحريض علىٰ القتال مشفوعًا بالتعضيد والتأييد ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ﴾، وهذا كله ونحوه مما ورد في سياق السورة يحيط به مقصدها الذي قال فيه البقاعي: "تبرؤ العباد من الحول والقوة، وحثهم علىٰ التسليم لأمر الله، واعتقاد أن الأمور ليست إلا بيده."(١)

ونلحظ أن مقام النزاع ليس في السؤال عن الأنفال فقط، وإنما في أمور أخرىٰ كجدالهم في الحق بعد ما تبين، وخوفهم وكأنهم يساقون إلىٰ الموت وهم ينظرون، وهذا السؤال كان سببًا لربط السورة بما قبلها؛ ليظل التعلق بالله -سبحانه-وتظل درجة العندية والانقطاع لله الذي ختمت به سورة الأعراف قائمة كما قالها ربنا مبينًا مكانتهم ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

ولأن مثار النزاع تردد وتكرر جاءت البداية بالفعل المضارع الدال علىٰ التجدد، فقال: "يسألونك" وهي جملة فعلية، يقصد بها السؤال عن حكمها، والمصرف لها والمستحق لها، فكان الجواب أنها لمن كان سببًا فيها بمدده ولطفه "قل الأنفال لله والرسول"، ولما كانت قلوبهم قد أصابها ما أصابها في أمر الغنائم قال: "فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم"؛ لأن الحكم الذي تسألون عنه صدر، فارضوا به، ولا تنازعوا فتفشلوا، وأصلحوا ما بينكم من الأحوال لتكون أحوال ألفة ومحبة واتفاق بينكم،

---

(١) مصاعد النظر ٢/ ١٤٤.

وقيل لها ذات البين؛ لأنها كانت واقعة في البين، كما أن الأسرار لما كانت مضمرة في الصدر قيل لها ذات الصدور(١).

فجمال الدلالة يكمن في التعليم والتوجيه إلىٰ الآداب التي يكون بها الحال مع الله ورسوله في أمر الغنائم، بالإضافة إلىٰ ما أورده السياق من نعم الله التي أحاطت بمعالم السورة، والتي يكمن منها دلالة التسليم المطلق للمنعم -سبحانه-؛ لأن النصر كله من عنده.

يأتي التعبير بالماضي مكان المضارع في الجملة الخبرية؛ ليدل علىٰ تحقق الوقوع كما في قوله -تعالىٰ-: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [النحل: ١].

وهذا ما يسميه البلاغيون: التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي، وبعضهم يعدّه من باب الالتفات؛ لأنه عدول من أسلوب إلىٰ أسلوب آخر مخالف للظاهر، فهنا مثلًا لما كان يوم القيامة آتيًا لا محالة جاء التعبير بلفظ الماضي والمعنىٰ مستقبل؛ وذلك لأن المقام يستدعي استحضار الصورة للمبالغة في "إنذار المشركين بالعذاب، وإبطال شركهم، ورد شبههم علىٰ القرآن والنبوة والبعث، وهي أمور متشابكة متلازمة، وقد افتتحت بآيتين أجملت فيهما تلك الأغراض، وقصد بهما التمهيد لتفصيل الكلام فيها"(٢).

وهكذا دلت الجملة علىٰ تنزيه الله -سبحانه-وإبطال شركهم، ودحض افترائهم، سواء في أمر البعث أو أمر النبوة، وحققت ذلك بضرب الأمثال؛ ليكون الإنذار يقينًا لا شك فيه، والبعث آت لا ريب فيه.

---

(١) ينظر تفسير الرازي ١٥/ ١٢٠، وإعراب القرآن وبيانه، محيي الدين الدرويش، ٣/ ١٠٠.
(٢) النظم الفني في القرآن ١٦٧.

ولو جاء التعبير بـ"يأتي" أو سيأتي لضعفت درجة الإنذار المطلوب إبلاغهم بها، واختل تناسب الجملة مع سياق السورة المذكّر بعظم نعم الله، وفي خلالها تتجلىٰ قدرته كقوله -تعالىٰ- مثلًا: ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾ [النحل: ٢٣]، وجاءت كلمة "أتىٰ" مرة ثانية في السورة بعد خمس وعشرين آية تحمل قمة التهديد بالتذكير بحالة من كانوا قبلهم عقابًا علىٰ مكرهم، يقول -تعالىٰ-: ﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [٢٦]، فالأولىٰ "أتىٰ أمر الله"، وهنا "فأتىٰ الله بنيانهم"، "وأتاهم العذاب"، والتعبير بمادة أتىٰ يدل علىٰ سهولة الأمر ويسره، والله يستوي عنده هذا وذاك، ولكن المراد أن يتبين لهم أن ما يظنونه بعيدًا سهل قريب، ثم تأتي مادة "أتىٰ" للمرة الثالثة في سياق السورة في قوله -تعالىٰ-: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [٢٣، ٢٤]، والجملة الأولىٰ بما لها من العظمة الدالة علىٰ قدرة الله وسعة علمه وتنزيهه عما يقولون تتآزر مع ختام سورة الحجر قبلها ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ نجد هنا قمة التثبيت وبث الطمأنينة، يقابله في أول النحل قمة الوعيد والتهديد الساري في عروق السورة كلها، كما تبين من بعض الشواهد الدالة علىٰ علم الله وحكمه عليهم، وبيان عاقبة من كانوا مثلهم في المكر من الأمم السابقة.

ولكن كان الحديث في نهاية سورة الحجر مع الرسول -صلَّىٰ الله عليه وسلَّم- بلفظ "ربك" الدال علىٰ الإنسان واللطف، وكذا الإضافة إلىٰ كاف الخطاب الدالة

علىٰ منزلة الحب، ودرجة القرب، بخلاف القوة والهيمنة هنا في التعبير باسم الجلالة "أتىٰ أمر الله" ففيه في جانب الرسول -صلَّىٰ الله عليه وسلَّم- بيان أن يقين الله قريب، وفيه هنا مع التهديد قمة المبالغة في إنذار هؤلاء المتشككين في قدرة الله علىٰ البعث، وكانت أول ثمرة من ثمار الجملة الخبرية بلفظ الماضي الدال علىٰ تحقق الوقوع، وأن هذا أمر لا مفر منه، كانت أول ثمرة: النهي عن الاستعجال "فلا تستعجلوه"، وهذا النهي يحمل في طيه الوعيد؛ لأن الاستعجال صفة نقص، والله منزه عن كل ذلك، ومن ثم قال: "فلا تستعجلوه سبحانه وتعالىٰ عما يشركون" جامعًا بين التنزيه والتعالي عن سفاهة عقولهم، وقصر نظرهم، وضيق أفقهم، وضآلة فكرهم، مع أنهم كانوا أهل لسان وبيان، ولكن غرّهم ذلك فاستكبروا وأخبر الله أنه لا يحب المستكبرين، وهكذا تحكي دلالة الجملة والسياق واقعًا كان، وأمرًا واقعًا لا محالة، والبداية أهون من الإعادة، كما قال -تعالىٰ-: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧]، ولذا لم يكتف بعض العلماء بعبارة "تحقق الوقوع" فقط في مثل هذا، بل رأىٰ فيه "التنبيه علىٰ قرب الوقوع والمبالغة في تأكيده.

وعلى هذه الشاكلة قوله -تعالىٰ-: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١]، قال النيسابوري: "قيل: اللام بمعنىٰ من، أي اقترب من الناس حسابهم محاسبة الله إياهم علىٰ أعمالهم، وهم، واو الحال، في غفلة عنه معرضون، عن التفكير فيه والتأهب له، نزلت في منكري البعث"(١).

(١) الكشف والبيان عن تفسير القرآن ٦/ ٢٦٨.

وقال الزمخشري: "هذه اللام لا تخلو من أن تكون صلة لاقترب، أو تأكيدًا لإضافة الحساب إليهم"(١)، والسورة كلها تدلل علىٰ تحقق وقوع أمر الله، وهو القيامة، وكل شواهد السورة تدلل علىٰ علو قدرة الله عز وجل، وفي سياق السورة ما يدل علىٰ إنكارهم، وتشكيكهم في وعد الله، قال -تعالىٰ-حاكيًا عنهم: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [٣٨] ثم يرد عليهم بقوله -تعالىٰ-: ﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [٤٠]، وهذا يتناسب مع لهو قلوبهم، وغفلة إعراضهم. والبداية بكلمة "اقترب" مبالغة في تحقق الوعيد كما هي مبالغة في تحقق الوقوع؛ لأنه قال اقترب للناس حسابهم، فالتهديد بداية علىٰ اقتراب الحساب، والصيغة "اقترب" فيها دلالة علىٰ افتعالهم وتكلفهم في سوء أقوالهم وأعمالهم؛ لأنهم يعلمون صدق الرسول -صلَّىٰ الله عليه وسلَّم- ولكنهم يكذبون ويجحدون ويستكبرون، فهذه الصيغة جمعت ما بنيت عليه السورة من: تحقق وقوع البعث، واقتراب ساعة الحساب التي يستعجلونها استهزاء، وتذكيرهم بقدرة الله في خلقهم وفتق السماوات والأرض ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [٣٠]، وغير ذلك من دلائل القدرة والنعم، وأخبار بعض الرسل في السورة، وكل ما فيها تثبيت وتسلية للرسول -صلَّىٰ الله عليه وسلَّم- إعانة له علىٰ تبليغ رسالته، وألا تأخذه نفسه حسرات عليهم ..

وفي هذه الصياغة "اقترب" الجامعة لمعالم السورة بما فيها من تذكير بالنعم من جانب، وبالقدرة من جانب آخر، يقول البقاعي: "وأشار بصيغة الافتعال إلىٰ مزيد

(١) الكشاف ٣/ ١٠٠.

القرب؛ لأنه لا أمة بعد هذه يتنظر أمرها، وأخر الفعل "حسابهم" تهويلًا لتذهب النفس في تعينه كل مذهب"(١).

ولذلك لم تذكر كلمة "اقترب" في القرآن كله إلا في هذه البداية، وفي قوله -تعالىٰ- في سورة الأعراف: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾ [١٨٥] أي اقترب إهلاكهم، فهو -سبحانه- هنا ينكر عليهم عدم النظر والاعتبار ويشفق عليهم من اقتراب الأجل وهم علىٰ هذه الحالة من الغفلة، وعسىٰ تكون لما هو خليق وجدير بأن يكون، وإذا كان التعبير بـ"عسىٰ" طمعهم في النظر والتأمل والاعتبار إشفاقًا عليهم، فإن فيها تنبيهًا لهم، وإيقاظًا من عفلة مفتعلة، والتنبيه هنا ب"عسىٰ" مع الصياغة بـ"اقترب" يجمع بين التنبيه والتحقيق والتخويف، ومن ثم لاحقة بإنكار بعد إنكار، فقال: "فبأي حديث بعده يؤمنون" ليكون أدعىٰ لزجرهم وردعهم عما هم فيه"(٢)

فهذان هما الشاهدان التي ذكرت فيهما صيغة الافتعال "اقترب" كل منهما يحيطه سياج من الإنكار والإنذار، وتحقق الوعد، وهذا هو الذي يرنو إليه جمال الدلالة والسياق في النص القرآني من خلال الجملة الخبرية الدالة علىٰ تحقق الوقوع للتعبير بالماضي مكان المستقبل، مع العلم بأن بعض الشواهد تخرج عن "تحقق الوقوع" في التعبير بلفظ الماضي؛ لتؤدي دلالة أخرىٰ حسب سياقها ومقامها كما هو الشأن في قوله -تعالىٰ-: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١]، ففي التعبير بالماضي هنا

---

(١) نظم الدرر ٥/ ٦٤.

(٢) ينظر مقامات عسىٰ في القرآن الكريم، دراسة بلاغية مقارنة لكاتب هذا البحث، دار السعادة بالقاهرة، ط١، ١٩٩٧م، ص٦٩.

دلالة على المكانة والشرف، والاستحقاق تحقيق السعادة الأبدية، والرفعة الدنيوية والأخروية، فجمال دلالته يكمن في الإجلال والتعظيم قبل تحقق الوقوع.

وهكذا يكون المقام متآزرًا مع الغرض من التعبير.

وعلى شاكلة قوله -تعالى-: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ﴾ ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ [القمر: ١]، وسياقها أيضًا سياق تحقق وإنذار، والتحقق في فاتحتها يتلاءم مع قمة الإنذار في نهاية سورة النجم قبلها، وآخر آية في النجم فيها توجيه للأنفع، وبداية القمر ليس تحقيق وقوع الساعة، بل تحقيق اقتراب وقوعها، ومقدار التهديد في بدايتها تأتي الأدلة الداعمة له في سياقها نحو: خبر الطوفان، وهلاك الأمم، والوعيد في نحو قوله -تعالى-: ﴿سَيَعۡلَمُونَ غَدٗا مَّنِ ٱلۡكَذَّابُ ٱلۡأَشِرُ﴾ [٢٦]، والتعبير بـ "غدًا" وبكرة في قوله -تعالى-: ﴿وَلَقَدۡ صَبَّحَهُم بُكۡرَةً عَذَابٞ مُّسۡتَقِرّٞ﴾ [٣٨]، ونحو ذلك مما يحقق لفظ البداية في السورة "اقتربت" ويقدر كل هذا في اقتراب الساعة وتحقيق الوعيد، والمبالغة في الإنذار، نجد مكانة أهل التقوى ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ ٥٤ فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ﴾ [٥٥]، فهذا وعد يقابل الوعيد، ويضاعف وزنه، ويختم أخبار السورة.

ومن شواهد تحقق الوقوع، الحكم بالفلاح في قوله -تعالىٰ-: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١].

وهذه العبارة "قد أفلح" جاءت حكمًا علىٰ النفس في تزكيتها مرتين، إحداهما في سورة الأعلىٰ ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلىٰ: ١٤]، أي تطهّر، وذلك يكون بتطهير نفسه من المعاصي، وفي سورة الشمس صريحة ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩، ١٠]، وكل منهما ترغيب في الخير، وترهيب من الشر، ولكن هذا الحكم وقع هنا في صدر السورة، وسياق سورة المؤمنون التي استهلت بهذا الحكم القاطع بفلاح المؤمنين الذين تحققت فيهم جمل البيان بعد هذه البداية، والتي لا يكون النص إلا بها ... سياقها سياق ترغيب وترهيب أيضًا، والترغيب سيطر علىٰ سياق العشر آيات الأولىٰ، ثم تجلّت بعده نعم الله تترىٰ من جميع أصناف النعم، ثم قصّت أخبار بعض الرسل، بما فيها من ترغيب وترهيب، ترغيب ببيان فلاح المؤمنين، وترهيب بذكر الصيحة وإهلاكها من كذب، وتأتي النهاية مقابلة للبداية ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [١١٨] ختام السورة.

والجملة الأولىٰ محققة بقد، والأخيرة مؤكدة بـ إن وضمير الشأن: "إنه لا يفلح الكافرون" أي أن الكافرين لا يفلحون، فهم بأفعالهم أساس هذا الحكم الإلهي، وهذا يؤكد أن الفلاح ليس إلا للمؤمنين، وهو ما بدأت به السورة، قبل أن تبيّن إمهال من كفر، وارتقاء من أطاع، ومن ثم كان جمال الدلالة متآزرًا مع السياق في الحكم بفلاح المؤمنين إجمالًا في مقابلة نفي هذا عن الكافرين في نهاية السورة، والحكم بالفلاح ورد في القرآن كما سبق للنفس، وكذلك لمن استعلىٰ في قوله -تعالىٰ-: ﴿وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ﴾ [طه: ٦٤]، أي فاز وغلب، وهذا في موقف سيدنا موسىٰ مع سحرة

فرعون، كما كثر في القرآن الكريم بعدم الفلاح مثل قوله -تعالىٰ-: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنعام: ٢١، ١٣٥، والقصص، ٣٧]، و﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ [يونس: ٣٧]، ﴿وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾ [يونس: ٧٧]، و﴿لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [القصص، ٨٢].

والسورة الثانية والأخيرة التي استهلت بـ "قد" في القرآن الكريم سورة المجادلة: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١].

إذًا جاءت "قد" في فاتحة سور القرآن مرتين فقط، إحداهما في الحكم بفلاح المؤمنين، والثانية في إغاثة الملهوفين، كما هنا.

ومعلوم أن "قد" حرف تحقيق، وهي هنا داخلة علىٰ الماضي "سمع" ولكن المقام هنا والكلام مع رسول الله -صلَّىٰ الله عليه وسلَّم-يعطي معنىٰ غير التحقيق، فسماع الله أمر محقق؛ لأنه يعلم السر وأخفىٰ، فكيف بالجهر والشكوىٰ والمجادلة؟ لذلك قال العلماء: "قد" معناه: التوقع؛ لأن رسول الله والمجادلة كانا يتوقعان أن يسمع الله مجادلتها وشكواها، وينزل في ذلك ما يفرج عنها"(١)، فحقق الله توقعهما وكفاهما همّ ما هم فيه، فالتحقيق ثابت في "قد" ومع ذلك حكم السياق بتنزيل غير المتردد منزلة المتردد؛ حيث استشرفت له نفسه، والرسول كان يجيبها بعلمه حتىٰ نزل علم الله، فكان التوقع التي خرجت إليه "قد" موائمًا للمقام؛ لأن الحوار مع النبي -صلَّىٰ الله عليه وسلَّم- وهو لا يصيبه شك في سمع الله وعلمه، كيف وقد قالت السيدة عائشة: تبارك الذي وسع سمعه الأصوات كلها، إن المرأة لتحاور رسول الله -صلَّىٰ

(١) تفسير الرازي ٣٠/ ٢٥١.

الله عليه وسلَّم- وأنا في ناحية البيت أسمع بعض كلامها ويخفىٰ عليّ بعضه إذ أنزل الله: "قد سمع الله ..." حكته كتب التفسير.

فالجملة خبرية محققة أمرًا محققًا، وليس المقصود بها تحقيق سمع الله، ولكن إجابة من لجأ إلىٰ الله بصدق، وليس له إلا الله ... ومن ثم دل جمال الدلالة هنا علىٰ قدرة الله الذي وسع كل شيء رحمة وعلمًا، وأن التحقيق قد يأتي دلالة علىٰ هذه القدرة من باب الكناية، كما جاء صريحًا في إغاثة من لجأ إلىٰ الله بصدق.

يقول الزركشي: "واعلم أنه ليس من الوجه الابتداء بها -أي قد-إلا أن تكون جوابًا لمتوقع، كقوله -تعالىٰ-: "قد أفلح المؤمنون"؛ لأن القوم توقعوا علم حالهم عند الله، وكذلك قوله: "قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها"؛ لأنها كانت تتوقع إجابة الله لدعائها"(١)، وقضية هذه المرأة أساس في بناء السورة، ولها القدح المعلّىٰ فيها، ولكنها عمّت في بيان حكم الظهار، وتحدثت عن التناجي بما يغضب الله، وحذرت منه، ووجهت وأرشدت فيما ينفع، وحذرت من محاربة الله ورسوله.

وكل هذا السياق يساعد في تحديد جمال الدلالة والسياق في بيان قدرة الله من جانب، ورحمته ولطفه بمن لجأ إليه من جانب آخر.

ومن الجمل الخبرية التي دلت على سياق السورة جملة، وأحاطت به دفعة، قوله -تعالىٰ-: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾ [المعارج: ١].

هذه المادة وقعت في القرآن الكريم أكثر من مائة مرة، ولكن لم تُرسم بهذا الشكل، ولم تأت بهذه الصياغة إلا في هذه السورة التي قصدت: "إثبات القيامة، وإنذار من

(١) البرهان ٤/ ٣٠٦.

كفر بها، وتصوير عظمها بعظمة ملكها وطول يومها، وتسلية المنذِر بها لمن كذبه، من الصغار والذل والتبار."(١)

وجمال الدلالة في سياقها يجري في هذا القبيل من شدة الإنذار المناسبة لعظمة الحق، المناسبة لقوة التسلية للرسول -صلَّىٰ الله عليه وسلَّم-، وكأنها مكملة لسورة الحاقة قبلها أو امتداد لها، وهذا يعني أن الجملة الاسمية -كما في الحاقة-يتجلىٰ فيها الإنذار، كما هو في الجملة الفعلية، ولكن تقدّمت الحاقة لإثباته، وجاءت الجملة الخبرية الفعلية هنا ردًّا علىٰ من تعجّله، وتوبيخًا لمن سأله، ويأت المضارع الذي يجدد الإنذار في قلوبهم، ويجعله لا يفارقهم، في قول الله -تعالىٰ-: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ [الآية: ٦، ٧].

فالذي يقرأ "الحاقة ما الحاقة" يظن أنه لا تحقيق لوقوع الساعة أكبر من ذلك، وليس هناك إنذار أبلغ من الإنذار الذي انتهىٰ بتحقيق وعيد الله فيها؛ حيث قال في نهايتها: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ [الحاقة: ٥١]، "فقد انطوت السورة علىٰ أشد وعيد وأعظمه" وأتبعتها هذه "بجواب من استبطأ ذلك واستبعده؛ إذ هو مما يلجأ إليه المعاند الممتحن، فقال -تعالىٰ-: "سأل سائل بعذاب واقع" إلىٰ قوله -تعالىٰ-: "إنهم يرونه بعيدًا ونراه قريبًا"(٢)، وقيل: إنها جاءت جوابًا لقول النضر بن الحرث -كما حكاه القرآن الكريم- ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا

(١) مصاعد النظر ٣/ ١١٨.

(٢) البرهان في تناسب سور القرآن ٣٤٦.

حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال: ٣٢]، والباء في "بعذاب واقع" للتأكيد، أو لما كان سأل بمعنىٰ دعا عُدي تعديته كأنه قال: دعا بعذاب من الله ..(١).

فجمال الدلالة هنا يتجلىٰ في تحقيق القرب وتأكيد الإنذار في مقام الرد علىٰ المنكرين خلال سياق يتقابل فيه الإنذار وتحقيق الوعيد بين فاتحة السورة وخاتمتها، ففي فاتحتها "ليس له دافع"، و"نراه قريبًا"، وفي خاتمتها جمعُ ذلك في قوله: ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾ [٤٣] أي كأنهم يسارعون إلىٰ أصنامهم كما كانوا يفعلون في الدنيا ﴿ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴾ [٤٤]، فآخر السورة يتناغم مع أولها في تحقيق الوعد وتأكيد الإنذار، فهو يوم مكين محقق غايته عظيمة، وعظمة أحداثه من عظمة محدثه، ولشدة وقع العذاب علىٰ سائله والمتعجل به؛ سخرية جاء التعبير عن مقدار اليوم بقوله -تعالىٰ-: ﴿ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾، وفي سورة السجدة قال: ﴿ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [السجدة: ٥].

فالتعبير هنا بخمسين لما فيه من شدة وقع علىٰ من سأل سخرية وإنكارًا، وفيه دليل الشدة التي تناسب الإنكار، كما أن هذا حكاية عن عروج الملائكة، فهو بالنسبة لقدرتهم يقدر بخمسين ألف سنة، أما في سورة السجدة فكان قياسًا علىٰ قدرته -سبحانه-، لذلك لم يذكر الملائكة في سورة السجدة بل قال: "ثم يعرج إليه" أي بإذنه دون واسطة ملك، بخلاف آية سأل التي نص فيها علىٰ الملائكة "تعرج الملائكة " ويرىٰ بعض العلماء أنها عبارة عن الشدة، واستطالة أهلها إياها، المقابل لاستقصار أيام الراحة والسرور، وخصت سورة السجدة بقوله "ألف سنة" لما قبله، وهو قوله "في ستة أيام" وتلك الأيام من جنس ذلك اليوم، وخصت سورة المعارج بقوله

(١) ينظر: تفسير الرازي ٣٠/ ١٠٧.

"خمسين ألف سنة" لأن فيها ذكر القيامة وأهوالها، فكان هو اللائق بها، وهذا يتناسب مع جرأة الكافر في استعجال العذاب، وذل الكافرين الذي ختمت به السورة: ﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۚ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾"(١).

وجمال الدلالة هنا يحكيه مقام الحال، ووقع الزمان إما كناية عن الشدة الماثلة في طوله علىٰ الكافرين موافقة لاستبعادهم إياه، وكونه علىٰ المؤمنين بمقدار صلاة لإيمانهم وتسليمهم الأمر إليه، وأما تناسبًا لسياق كل سورة كما تبين.

وقد تستهل السورة بجملة خبرية تحكي واقعًا، وتعاتب عليه بتلطف للعلم بما يُكنه صدر النبي -صلَّىٰ الله عليه وسلَّم-، ولكن سياقها يدلل علىٰ قدرة الله ونعمه الدالة علىٰ قيام الساعة، وهذه الجملة هو قوله -تعالىٰ-: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ [عبس: ١]، لا ريب أنه سياق عتاب بإقرار من النبي -صلَّىٰ الله عليه وسلَّم-؛ لأنه كان إذا قابل عبد الله بن أم مكتوم صاحب هذه الواقعة قال: "مرحبًا بمن عاتبني فيه ربي"، ولكن العتاب جاء بطريق الغيبة تلطفًا من قبل الحق -سبحانه-؛ لأن النبي كان مشغولًا بكبار من القوم وهمه أن يسلموا، فلما جاء ابن أم مكتوم يسأله تغير وجهه بسبب مقاطعته إياه، فنزلت تحث علىٰ المساواة بين الناس، وتحقق ختام السورة قبلها في قوله -تعالىٰ-: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٥].

لذلك قال البقاعي: "مقصودها شرح "إنما أنت منذر من يخشاها" بأن المراد الأعظم تزكية القابل للخشية بالتخويف بالقيامة التي قام الدليل علىٰ القدرة عليها بابتداء الخلق من الإنسان"(١).

(١) ينظر بصائر ذوي التمييز ١/ ٢٦٢، وينظر درة التنزيل ٢٧٢.

ويؤخذ من كل هذا جمال الدلالة والسياق في الجمع بين: التوجيه في صورة عتاب لتتجلىٰ قوة التوجيه فتفضي إلىٰ عدم التفرقة بين الناس بسبب الحرص علىٰ إيمانهم، والانشغال عمن هو ألين قلبًا بسببهم، وعلىٰ ذلك تكون جملة فاتحة السورة شعاعًا يضيء جل معانيها، ويحمل الدلالة علىٰ قدرة الله بدءًا ونهاية.

وهذه الجملة "عبس وتولىٰ" ليس لها في القرآن نظير، وكذلك جملة البداية في سورة البينة، وهي قوله -تعالىٰ-: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ١] ليس لها نظير في القرآن الكريم، و" لم" حرف نفي وجزم وقلب، و"يكن" فعل مضارع ناقص مجزوم بـ" لم" وحرك لالتقاء الساكنين، و"الذين" اسم "يكن" في محل رفع.

وجملة "كفروا" صلة الموصول، و"منفكين" خبر يكن، والجملة ابتدائية لا محل لها؛ أي لا تقع موقع المفرد، والمعنىٰ: لم يكن هؤلاء القوم منفكين من أمر الله -تعالىٰ- وقدرته، ونظره لهم حتىٰ يبعث إليهم رسولًا منذرًا تقوم عليهم به الحجة، وتتم علىٰ من آمن النعمة، فكأنه قال: ما قال: ما كانوا ليتركوا سدىٰ "[٢] أي من غير تكاليف ومجازاة؛ لذا كان المقصود من السورة بيان أن القرآن نور وهدىٰ لقوم، وعمىٰ لآخرين، فيقود إلىٰ الجنة ويسوق إلىٰ النار...

فجمال الدلالة والسياق في نص هذه الجملة كامن في أن الرسول -صلَّىٰ الله عليه وسلَّم-والبيان الذي جاء به هو الذي فك القوم عن دينهم وما كانوا يعبدون من دون الله، ويرتقي هذا الجمال في سياق السورة لإثبات مقام هذا الرسول ومكانة هذا

---

(١) نظم الدرر ٨/ ٣٢٣.

(٢) المحرر الوجيز لابن عطية، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٢هـ، ٥/ ٥٠٧.

الكتاب؛ لينتهي الحكم ببيان أن أهل الكفر هم شر البرية، وأن أهل الإيمان هم خير البرية.

وهذه نماذج متنوعة تثبت جمال الدلالة والسياق في النص القرآني من خلال دراسة الجملة الخبرية اسمية كانت أو فعلية، ماثلة في فواتح السور القرآنية، وننتقل بعد ذلك إلىٰ جملة الشرط من خلال فواتح السور أيضًا.

جمال الدلالة والسياق في النص القرآني (الجملة الشرطية)

ما سبق الحديث عنه كان في الجملة الخبرية التي وقعت في فاتحة السور القرآنية تجلىٰ فيها جمال الدلالة والسياق باعتبار المقام والأحوال، واختلاف أنواع السياق من مقصد السورة، وأثره في بنائها علىٰ اختلاف موضوعاتها، والحديث هنا - سيكون -بمشيئة رب العالمين- عن جمال الدلالة والسياق في النص القرآني من خلال افتتاح السور القرآنية بالجملة الشرطية.

والجملة الشرطية أحد الافتتاحات العشرة التي لم يخرج الافتتاح في كتاب الله عنها، وهي -كما سبق- الافتتاح بالثناء، وتحدثت فيه عن الافتتاح بالحمد في السور الخمس ووجه الربط بينها.

ويتمثل الافتتاح بالجملة الشرطية في سور: الواقعة، والمنافقون، والزلزلة، والنصر، التكوير، والانفطار، والشقاق.

وكلها بأداة شرط واحدة وهي "إذا" أربع سور منها داخلة علىٰ الأفعال وثلاث سور دخلت فيها علىٰ الاسم، وسيتجلىٰ ذلك بعد بيان معنىٰ الشرط وأهميته في بناء الأسلوب وتنمية فائدته، وبه تغزر معانيه وتختلف دلالته وتتنوع؛ لأن التقييد يتنوع بتنوع أداته.

مادة شرط -كما يقول ابن فارس-: الشين، والراء، والطاء، أصل يدل علىٰ تحكم وعلامة وما قارب ذلك من تحكم، من ذلك الشرط: العلامة، وأشراط الساعة علاماتها، وسُمّي الشرط لأنهم جعلوا لأنفسهم علامة يعرفون بها ... ويقال: إن أشراط الساعة أوائلها ... (١).

---

(١) مقياس اللغة (شرط).

والافتتاحات السبع بالشرط في سور القرآن، جاءت خمسة منها في الحديث عن الساعة، وبناء عليه فإن الشرط في بناء الكلام هو: كل حكم معلوم يتعلق بأمر يقع وقوعه، وذلك الأمر كالعلامة له، قال -تعالىٰ-: ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾[1]، أي علاماتها، ويقول الفيروزأباي: إلزام الشيء والتزامه في البيع ونحوه"[2].

فهو علامة والتزام، وقامت علىٰ ذلك معانيه عند الأصوليين، فقد درسوا الشرط لحاجتهم إليه في معرفة الأحكام والقضايا، وطرق الاستدلال، وهكذا تكون الحاجة إلىٰ اللغة في فهم الأصول الشرعية وغيرها، ولهم أيضًا دراسات لغوية وبلاغية، خلاف القضايا النحوية، ولكن الشرط عندهم يختلف تعريفه عن تعريف علماء اللغة والبلاغة، فقد قسموه إلىٰ: عقلي، وشرعي، ولغوي، وعادي، ومثلوا للعقلي بالحياة للعلم، وللشرعي بالوضوء للصلاة، وللعادي بالسلم لطلوع السطح، واللغوي بالزيارة لوقوع الإكرام، نحو إن زرتني أكرمتك ... وقال: "الشرط هو: ما يلزم من عدمه العدم، ولا يلزم من وجوده وجود ولا عدم لذاته، وهو كالاستثناء اتصالًا، وهو أولىٰ بالعود إلىٰ الكل علىٰ الأصح، ويجوز إخراج الأكثر به وفاقًا ... وذكر القرافي: إنه أجود الحدود"[3].

وأهل اللغة وضعوا مثل هذا التعريف والتركيب؛ ليدل علىٰ أن الجزء الثاني منه وجوده موقوف ومعلق علىٰ الجزء الأول..[4]

(١) المفردات للراغب (شرط).

(٢) القاموس المحيط، باب الطاء، فصل الشين.

(٣) ينظر: الغيث الهامع شرح جمع الجوامع، لأبي زرعة العراقي، ت٨٢٦هـ، دار الكتب العلمية، ط١، ٢٠٠٤ن، ص٣١٩.

(٤) ينظر: الدرر اللوامع في شرح جمع الجوامع، شهاب الدين الكوراني، ت٨٩٣هـ، تحقيق: سعيد بن غالب الحميدي، الجامعة الإسلامية، ٢٠٠٨م، ج٢/ ٣٥٣.

والشرط اللغوي عند البلاغيين: هو المذكور بعد "إن" وأخواته معلقًا عليه حصول مضمون الجملة بأن يحصل مضمون الجملة عند حصول الشرط ... فالجزاء معلق عليه، ولا يحصل إلا بحصوله ... وعلىٰ تقييد عندهم تعود إلىٰ تربية الفائدة ... كما سيأتي.

وأداة الشرط (إذا) التي جاء كل شواهدنا هنا قائمة عليها، من أدوات الشرط غير الجازمة، مثلها في ذلك مثل: كيف، ولو، ولولا، ولوما، ولما، وأمّا.

وجملة الشرط لها دلالة بلاغية تنبثق من الدلالة النحوية القائمة في بناء الجملة علىٰ أداة الشرط وفعل الشرط وجوابه، ولكن البلاغة لا تكرر دراسة النحو، بل تدرس معاني النحو، كما هو معلوم لدىٰ البلاغيين.

لذلك قال الشيخ عبد القاهر: "اعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل علىٰ قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت، فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك، فلا تخل بشيء منها، وذلك أنا لا نعلم شيئًا يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروعه، فينظر في الخبر إلىٰ الوجوه التي تراها في قولك: زيد منطلق، وزيد ينطلق، وينطلق زيد، ومنطلق زيد، وزيد المنطلق، والمنطلق زيد، وزيد هو المنطلق، وزيد هو منطلق، وفي الشرط والجزاء إلىٰ الوجوه التي تراها في قولك: إن تخرج أخرج، وإن خرجت خرجت، وإن تخرج فأنا خارج، وأنا خارج إن خرجت ... وينظر في الحروف التي تشترك في معنىٰ، ثم ينفرد كل واحد منها بخصوصية في ذلك المعنىٰ، فيضع كلًا من ذلك في خاص معناه، نحو أن يجيء بـ(ما) في نفي الحال، وبـ(لا) إذا أراد نفي الاستقبال، وبـ(إن) فيما يترجح بين أن يكون، وأن لا يكون، وبـ(إذا) فيما علم أنه كائن، وينظر في الجمل التي ترد فيعرف موضع الفصل فيها من موضع الوصل .. ويتصرف في التعريف والتنكير،

والتقديم والتأخير في الكلام كله، وفي الحذف، والتكرار، والإضمار، والإظهار، فيصيب بكل من ذلك مكانه، ويستعمله علىٰ الصحة وعلىٰ ما ينبغي له، هذا هو السبيل، فلست بواجد شيئًا يرجع صوابه إن كان صوابًا، وخطؤه إن كان خطأً إلىٰ النظم، ويدخل تحت هذا الاسم إلا وهو معنىٰ من معاني النحو قد أصيب به موضعه، ووضع في حقه."(١)

فقد وضع بذلك الأساس الذي تبنىٰ عليه دراسة البلاغة بكل ما فيها، ومن ذلك جملة الشرط والجزاء، كما نص عليها هنا، وعلىٰ الفرق بين "إن" و"إذا"، ومقام الكلام وسياقه هو الذي يرسم خطته، ويحكم جمال دلالته، ولذلك قال السكاكي: لكل كلمة مع صاحبتها مقام، ولكل حد ينتهي إليه الكلام مقام، وارتفاع شأن الكلام في باب الحسن والقبول، وانحطاطه في ذلك بحسب مصادقة الكلام لما يليق، وهو الذي نسميه مقتضىٰ الحال ..."(٢).

ولما كان كذلك جاءت الشواهد السبعة بجملة الشرط في فواتح السور السبع بـ(إذا) لتطابق المقام الذي فيه، وتحقق الواقع الذي لا ريب فيه؛ لأن الله قضىٰ به، ولا راد لقضائه.

وقبل أن أقف مع الشواهد، لا بد أن أبيّن ضوابط التعبير بـ(إذا) عند النحاة والبلاغيين؛ لتكون دراسة الشواهد قائمة علىٰ أصولهم وبيانهم؛ لأن القرآن نزل بلسان عربي مبين، ولم يحدث في لغة العرب تطور وارتقاء إلا بنزوله؛ حيث أثر فيها أثرًا بيِّنًا، وصنع لكل شيء قدرًا، وتجلت أسس كل تعبير وبلاغة كل قول.

---

(١) دلائل الإعجاز ٨٢، ٨٣.

(٢) مفتاح العلوم تحقيق: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٩٨٧م، ١٦٨.

فمن المعلوم للدارسين أنها –أي (إذا)-ظرف لما يستقبل من الزمان خافض لشرطه منصوب بجوابه، وعليه فجملة فعل الشرط في محل جر بإضافة إذا إليها، وإذا متعلقة بالجواب، وتختص بالدخول علىٰ الجملة الفعلية، ويكثر دخولها علىٰ الماضي نظرًا لطبيعة عملها؛ لأنها لتحقق الوقوع، وتلك طبيعة الفعل الماضي، وخاصة إذا وضع موضع المستقبل، كما سبق في نحو ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾، و﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾.

وإذا دخلت علىٰ اسم مرفوع أعرب فاعلًا لفعل محذوف يفسره الفعل الذي بعده، كما سيأتي في قوله –تعالىٰ-: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾.

وهذا إيجاز لما ذكره النحاة، وأغلبهم علىٰ أنها تستعمل في المقطوع بوقوعه، الذي لا شك فيه ولا ظن، فهي ظرفية عند سيبويه تدخل علىٰ المجزوم به؛ أي المقطوع بوقوعه، يقول سيبويه: "وأما إذا فلما يستقبل من الدهر، وفيها مجازاة، وهي ظرف، وتكون للشيء توافقه في حال أنت فيها، وذلك قولك: مررت فإذا زيد قائم، وتكون "إذ" مثلها أيضًا، ولا يليها إلا الفعل الواجب."(١)

ويقول أيضًا: "وسألته –أي الخليل-عن "إذا" ما منعهم أن يجازوا بها؟ فقال: الفعل في إذا بمنزلته في إذ؛ إذا قلت: أتذكر إذ تقول؟ فإذا فيما يستقبل بمنزلة إذ فيما مضىٰ، ويبين هذا أن إذا تجيء وقتًا معلومًا، ألا ترىٰ أنك قلت آتيك إذا احمر البسر كان حسنًا، ولو قلت: آتيك إن احمر البسر كان قبيحًا، فإن أبدًا مبهمة، وكذلك حروف الجزاء، وإذا تُوصل بالفعل، فالفعل في إذا بمنزلته في حين، كأنك قلت: الحين الذي تأتيني فيه آتيك فيه، وقال ذو الرمة:

(١) الكتاب تحقيق: عبد السلام هارون. مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط٣، ١٩٨٨م، ٤/ ٢٣٢.

تُصغي إذا شدها بالرحل جانحة   حتىٰ إذا ما استوىٰ في غرزها تثب

وقد جاوزوا بها في الشعر مضطرين، شبهوها بإن؛ حيث رأوها لما يستقبل، وأنها لا بد لها من جواب، وقال قيس بن الخطيم الأنصاري:

إذا قصدتْ أسيافنا كان وصلها   خطانا إلىٰ أعدائنا فنضارب

... فهذا اضطرار، وهو في الكلام خطأ، ولكن الجيد قول كعب بن زهير:

وإذا ما تشاء تبعث منها   مغرب الشمس ناشطًا مذعورًا(١)

وسلك سبيله كثير من النحاة، فالمبرد يقول: "وإنما منع (إذا) من أن يجازىٰ لأنها مؤقتة، وحروف الجزاء مبهمة، فلو قلت: إن تأتيني آتك، فأنت لا تدري أيقع الإتيان أم لا، وإذا قلت: إذا أتيتني وجب أن يكون الإتيان معلومًا، واستدل بقوله -تعالىٰ-: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾، و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾، و﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ﴾، وأن هذا واقع لا محالة، ولا يجوز وضع (إن) موضعها؛ لأن الله عز وجل يعلم و(إن) إنما مخرجها الظن والتوقع فيما نجد به المخبر كقوله -تعالىٰ-: ﴿إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾؛ لأن هذا راجع إليهم"(٢)

وكذلك الشأن عند البلاغيين، فقد سبق نص عبد القاهر: أنه يؤتىٰ بـ(إنْ) فيما يترجح بين أن يكون وألا يكون، وبـ(إذا) فيما علم أنه كائن.

وكذا قال السكاكي: أما (إن) فهي للشرط في الاستقبال، والأصل فيها الخلو عن الجزم بوقوع الشرط، وإذا للشرط في الاستقبال، والأصل فيها القطع بوقوع الشرط إما

(١) السابق ٣/ ٦٠ بقدر من الاختصار.

(٢) المقتضب تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة نشر عالم الكتب، بيروت ٢/ ٥٦.

تحقيقًا، أو باعتبار مّا خطابي، وهو النكتة في تغليب لفظ الماضي معه علىٰ المستقبل"(١).

وكذلك قال الخطيب: والأصل في إذا أن يكون الشرط فيها مقطوعًا بوقوعه. وهكذا قال نحوه العلوي صاحب الطراز، وسعد الدين التفتازاني في المختصر، والزركشي في البرهان، والبهاء السبكي في عروس الأفراح.

ولكن أشار الإنبابي إلىٰ جزئية تحتاج نظرًا؛ حيث يقول: "الجزم بالوقوع بحسب الاعتقاد، والتعليق بحسب نفس الأمر، وحينئذٍ لا منافاة بين الجزم بالوقوع وفرضه في المستقبل، من حيث إنه يستدعي القول علىٰ وجه الاحتمال، ولذلك لا يكذب بانتفاء القيد والمقيد"(٢).

فهو ينظر هنا لاعتقاد المخاطب، ولكن ذلك لا يصلح في الوقائع القرآنية المقطوع بها كوقوع الواقعة في ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾، وتكوير الشمس في: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾، فلا احتمال هنا، وإنما يمكن ذلك في كلام البشر بخلاف القرآن، حتىٰ لو أنكر المنكرون ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.[التوبة ٣٢]

فهي تدل علىٰ الزمن المستقبل باعتبار أصل وضعها، وهذا هو الأصل فيها، حتىٰ لو خرجت عنه علىٰ قلة من وجهة نظر بعض النحاة.

ولكن اعتبروها من أدوات الشرط لبناء الكلام معها علىٰ جملتين بينهما تعلق، فيتعلق الجزاء علىٰ حصول الشرط نحو: إذا ذاكرت نجحت.

---

(١) مفتاح العلوم ٢٤٠.

(٢) تقرير الإنبابي ٢/ ٣٦٥.

قال النحاة: ومن شبهها بأدوات الشرط اختصاصها بالدخول علىٰ الأفعال، والشرط لا يكون إلا بالأفعال، ولذلك تحتاج إلىٰ جواب، فهي متضمنة معنىٰ الشرط، ولكن يتعين وقت جوابها بشرطها كما سبق في كلام سيبويه.(١)

وخلاصة القول: أن (إذا) يُعبر بها فيما هو مقطوع به، بخلاف (إنْ)، ولا يصلح أحدهما في موضع الآخر، والقرائن خير دليل يجلي ذلك.

وشواهدنا في هذا البحث من الأمور الغيبية المقطوع بها، آمن بها من آمن، وكفر بها من كفر.

الشاهد الأول: قال -تعالىٰ-: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ [الواقعة: ١-٣].

مادة وقع تدل علىٰ السقوط، يقول ابن فارس: الواو والقاف والعين أصل واحد يرجع إليه فروعه، يدل علىٰ سقوط شيء، والواقعة القيامة، ويقول الراغب: ولا تقال الواقعة إلا في الشدة والمكروه، وأكثر ما جاء في القرآن من لفظ (وقع) جاء في العذاب، والشدائد، كقوله -تعالىٰ-: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾، و﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ سأل، و﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ وهكذا (٢)

قال أبو جعفر الطبري: يعني: إذا نزلت صيحة القيامة.(٣)

ولفظ الواقعة أدل علىٰ الشدة من لفظ القيامة، وفيه تصوير الحدث وبيان قوته علىٰ منكري البعث، ويقول الزمخشري: (وقعت الواقعة) كقولك: كانت الكائنة، وحدثت

(١) ينظر: الكتاب ٣/ ٦١، والمقتضب ٣/ ١٧٧، وغيرهما من كتب النحو القديمة.

(٢) مقاييس اللغة والمفردات (وقع) باختصار.

(٣) ينظر: تفسيره ٢٢/ ٢٧٩.

الحادثة، والمراد القيامة، وصفت بالوقوع لأنها تقع لا محالة، فكأنه قيل: إذا وقعت التي لا بد من وقوعها، ووقوع الأمر نزوله"(١).

ولما كان مقصودها: بيان جزاء من آمن، وعقوبة من كفر، ترغيبًا وترهيبًا، وبيان نعم الله، والتقرير بها، وبيان حال خروج الروح، وما فيه من شدة، ناسب أن تكون هذه بداياتها، ثم إن قوله -تعالىٰ-: (خافضة رافعة) بيان جلي لحال الفريقين، فهي تخفض فريقًا، وترفع فريقًا، كما قال ربنا: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾، الشورىٰ ٧، فمن تخفضهم تخفضهم بشدة، ومن ترفعهم ترفعهم بما يناسب مكانتهم، ولذلك ذكرت ثلاثة أصناف: أصحاب اليمين، وأصحاب الشمال، والسابقين، وهذا هو قول ربنا ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: ٧-١١]، فالوقع الصوتي لها يصور ذلك كله، ومعنىٰ هذا أن كل فريق له ما يناسبه علىٰ حسب درجة قربه التي حققها بعمله؛ لأن الفاصلة القرآنية ليست مجرد توافق ألفاظ، إنما هي تصوير حقائق، وبيان أحوال، وأنّ ما سبقها لم يكن إلا تمهيدًا لها، قال الرماني: الفواصل: حروف متشاكلة في المقاطع يقع بها إفهام المعاني، والفواصل بلاغة، والأسجاع عيب، وذلك أن الفواصل تابعة للمعاني، وأما الأسجاع فالمعاني تابعة لها، وهو قلب ما توجبه الحكمة في الدلالة؛ إذ كان الغرض الذي هو حكمة إنما هو الإبانة عن المعاني التي الحاجة إليها ماسة"(٢)

---

(١) الكشاف ٤/ ٥١.

(٢) النكت في إعجاز القرآن تحقيق ص٩٧: د. محمد خلف الله، ود. محمد زغلول سلام، دار المعارف بمصر، ط٣، ١٩٧٦م

وهذه الجملة (إذا وقعت الواقعة) تدل دلالة قاطعة بوقعها، وما فيها من شدة علىٰ أحوال الأصناف الثلاثة التي نصت السورة عليهم، بالإضافة إلىٰ تناسبها لما قبلها، وتفصيله من أول جملة فيها، يقول الغرناطي: "لما تقدم الإعذار في السورتين المتقدمتين، والتقرير علىٰ عظم البراهين، وأعلم في آخر سورة القمر أن كل واقع في العالم فبقضائه -سبحانه- وقدره ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [٤٩] و﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴾ [٥٢]، وأعلمهم -سبحانه- بالواقعة في انقسامهم الأخروي، فافتتح بذكر الساعة ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ إلىٰ قوله ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴾ فتجردت هذه السورة للتعريف بأحوالهم الأخروية، وصُدّرت بذلك عما جرّد في سورتين قبل التعريف بحالهم في هذه الدار، وما انجر في السور الثلاث جاريًا علىٰ غير هذا الأسلوب، فبحكم استدعاء الترغيب والترهيب لطفًا بالعباد ورحمة"(١)

فإذا كانت السورة توضح ما قبلها، وتفصل ما أجمل فيه فإن هذا الوقع في فاتحتها دليل عليه، ونتيجة له، كما أنه مقدمة لما بعده؛ مما تم مع موضوعاتها، وتاء التأنيث فيها تشير إلىٰ شدة الأمر الواقع وهوله، كما قال العلماء.

واختلف العلماء في العامل في "إذا" فقال بعضهم: إذا ظرفية متعلقة بالجواب المقدر، أي حصل كيت وكيت، وقيل: العامل فيها مقدر، أي: اذكر، وقيل: العامل فيها الفعل بعدها (وقعت) لأنها قد يجازىٰ بها، فعمل فيها الفعل الذي بعدها، كما يعمل في "ما" و" من" اللتين للشرط في قولك: ما تفعل أفعل، ومَن تكرم أكرم، فمن وما: في موضع نصب بالفعل الذي بعدها بلا اختلاف، ذكره مكي بن أبي طالب القيسي.

(١) البرهان في تناسب سور القرآن٣٢٩

وقيل: إنها مبتدأ، و"إذا رجت" خبرها، وهذا على القول أنها تتصرف، وقيل: إن جواب الشرط "فأصحاب الميمنة".(١)

والذي نخلص إليه بعد كل ذلك هو: أن جمال الدلالة والسياق كامن في هذه الجملة التي تصدرت السورة ببراعة استهلال تشرح واقعًا مضىٰ بإيجاز في سورتي القمر والرحمن قبلها، وتهيئ لأحوال بنيت عليها السورة بعد هذا الاستهلال التي احتوت تاء التأنيث، ولام التعريف؛ تحقيقًا للمبالغة المعبرة عن واقع الناس وأحوالهم حين ذلك، أي وقعت قيام الساعة المعبر عنه بقوله -تعالىٰ-: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾.

ويكمن الجمال كله في أن الافتتاح بهذه الجملة، فيه تشويق بالغ، ولفت قوي لمعرفة ما بعدها، فهي مثار تنبيه وتحريك، وإيقاظ لقلوب كانت لاهية، يلفتها هذا التهويل، ويجذبها لترقب الموقف بعد أن تذهب في تقديره كل مذهب.

ولم تأت كلمة الواقعة فاعلًا لفعل من جنسها في القرآن كله إلا في هذه الآية، وفي قوله -تعالىٰ-: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ [الحاقة: ٢٥]، بعد قوله -تعالىٰ-: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ [الحاقة: ١٣-١٥].

وسورة الحاقة سبق الحديث عنه في الجمل الاسمية، والفاء هنا في (فيومئذ) رابطة لجواب الشرط "إذا" ولحقت هذه الفاء الجواب، وهي في الأصل لا تلحقه؛ لاتصالها بالظرف المتعلق بالجواب "وقعت" وهذا الظرف بدل من "إذا" وقد جاز قوله

---

(١) ينظر: مشكل إعراب القرآن تحقيق: د. حاتم الضامن، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٠٥هـ، ٢/ ٧٠٩.

وينظر: إعراب القرآن وبيانه، محي الدين الدرويش، ٧/ ٣٩٢.

"وقعت الواقعة"؛ لأن الواقعة علم بالغلبة علىٰ القيامة، و"إذ" مضاف إليه، والتنوين فيه عوض من جملة؛ أي يوم إذا نفخ في الصور"(١).

والآية هنا مسبوقة بالنفخ في الصور الذي هو دليل القيامة؛ أي إذا نفخ في الصور تحقق الوقوع، والتعبير بالماضي يحقق ذلك وينبه إليه.

وفرق بين أن تأتي الجملة في صدر السورة وبين أن تأتي في سياق السورة، فالدلالة تختلف، فهي هناك تفصل ما مضىٰ، وتهيئ لما بعدها تأكيدا لمقصودها، وتحقيقًا لموضوعاتها، ولكنها في سياق السورة هنا، فتؤكد معنىٰ النفخ المذكور قبلها، فدلالتها محدودة؛ لأنها آية ضمن آيات، وليس صدرًا لآيات، وفرق بين أن يكون في الشيء معنىٰ الشيء، وبين أن يكون الشيء الشي، أو تأكيدًا له، فالأخير في آية الحاقة "فيومئذ وقعت الواقعة" والأول في صدر الواقعة؛ لأن الجملة "إذا وقعت الواقعة ليس لوقعتها كاذبة" إجمال للمعاني المرادة في السورة، وبيان تفصيل للمعاني القائمة علىٰ الترغيب والترهيب في السورة قبلها؛ مما يجعل القرآن الكريم خطًا مترابطًا لا يمكن فصله، سواء سوره أو آياته.

والشاهد الثاني من شواهد افتتاح السور بجملة الشرط بـ(إذا) قوله -تعالىٰ-: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١].

فالعامل في (إذا) قوله "جاءك"؛ لأن فيها معنىٰ الشرط كما سبق، وجواب الشرط قوله: "قالوا نشهد " وجملة "إنك لرسول الله" جواب القسم؛ لأن "شهد" جرىٰ

---

(١) مشكل إعراب القرآن للخراط ٥٦٧.

مجرىٰ القسم، ولذلك تُلقيت بما يتلقىٰ به القسم في قوله "إنك لرسول الله"، وكسرة همزة (إن) لوجود اللام في الخبر.(١)

فجمال الدلالة هنا يكمن في تكذيب المنافقين والتأكيد علىٰ ذلك، والمبالغة فيه لنفي كل خديعة يصنعونها؛ لأنهم شهدوا بالخداع، والتحذير منهم بأبلغ وسائل التوكيد وهو القسم ظاهرًا كان أو خفيًا، مصرحًا به أو يؤديه مضمون السياق، ويحقق هذه الدلالة ويجليها النظر في مقصود السورة ومحتواها، فهي كما قال الفيروزأبادي: "معظم مقصود السورة: تقريع المنافقين، وتبكيتهم، وبيان ذلهم وكذبهم، وذكرت تشريف المؤمنين، وتبجيلهم، وبيان عزهم وشرفهم، والنهي عن نسيان ذكر الحق -تعالىٰ- والغفلة عنه، والإخبار عن ندامة الكفار بعد الموت، وبيان أنه لا تأخير ولا إمهال بعد حلول الأجل في قوله: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾(٢).

فالمبالغة في التحذير من خداعهم حكته الجملة الأولىٰ في فاتحة السورة ببيان محكم، ثم فصلته السورة بتدبير متقن، كما قال ربنا -سبحانه-﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ﴾ [هود: ٢]، ومخالفة الظاهر للباطن أجمل ما تجليه دلالة هذه الجملة وهي ملبدة بمجموعة من أساليب التأكيد متنوعة بتنوع قلوبهم، ومن ثم أراها دلالة كشف وتحذير، وافتضاح أمر، وتنبيه، وتصوير هيأتهم بين ذلك في أجسادهم، وتحريك رؤوسهم ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ كَأَنَّهُمۡ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ وتلوية رؤوسهم كما حكاه القرآن ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ يَسۡتَغۡفِرۡ لَكُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوۡاْ رُءُوسَهُمۡ وَرَأَيۡتَهُمۡ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ﴾.

---

(١) ينظر: مشكل إعراب القرآن للقيسي ٢/ ٧٣٥

(٢) بصائر ذوي التمييز ١/ ٤٦٥.

الشاهد الثالث من شواهد دخول "إذا" علىٰ الفعل، وتصوير الواقع بأبلغ صورة قوله -تعالىٰ-: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة: ١].

سبق هذه السورة بترتيب المصحف آيات كونية، نحو قوله -تعالىٰ-: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾، و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾، و﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾، وكلها آيات كونية علوية.

وهذه السورة (الزلزلة) آية كونية أرضية، وقبلها في سورة المزمل: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ [المزمل: ١٤]، وفي الحاقة: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ [الحاقة: ١٤]، وفي الفجر: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ [الفجر: ٢١]، وفي الانشقاق: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ [الانشقاق: ٣]، وهذه المواد التي بنيت منها هذه العبارات: (رجف)، و(دك)، و(مدّ) بمثابة مقدمات لهذه الزلزلة، فرجف تدل علىٰ الاضطراب الشديد، والدك هي الأرض اللينة السهلة كما قال الراغب، ويقول ابن فارس: الدال والكاف أصلان: أحدهما يدل علىٰ تطامن وانسطاح، ومنه الأرض الدكاء، وهي الأرض العريضة المستوية، وأصل المد: الجر، يقول ابن فارس: الميم والدال أصل واحد يدل علىٰ جر شيء في طول، واتصال شيء بشيء في استطالة. أي الزيادة فيه، والزلزلة: الاضطراب، وتكرير حروف لفظه: تنبيه علىٰ تكرير معنىٰ الزلل فيه وزلزلوا أي زعزعوا"(١)، ففيه تكرير الاضطراب وشدة التحرك، وهي آخر حركات الأرض، وفيه يقول الزمخشري: "وهو الزلزال الشديد الذي ليس بعده، ونحوه قولك: أكرم التقي إكرامه، وأهن الفاسق إهانته، تريد ما يستوجبانه من الإكرام والإهانة، أو زلزالها كله، وجميع ما هو ممكن(٢)، وأخرجت ما

(١) المفردات للراغب، ومقاييس اللغة: (رجف)، (دك)، (مد)، (زل).
(٢) الكشاف ٤/ ٢٧٦.

في جوفها من الدقائق أثقالها، (وقال الإنسان مالها) زلزلت هذه الزلزلة الشديدة، ولفظت ما في بطنها، ولفظت أمواتها أحياء عند النفخة فيقول: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ [يس: ٥٢]، ويلاحظ إضافة الزلزال إليها "إذا زلزلت الأرض"

فـ(إذا) ظرفية شرطية، وزلزلت فعل ماض مبني للمفعول، والأرض نائب فاعل، والعامل في إذا جوابها (تحدث أخبارها) "وإضافة الزلزال إليها يفيد معنىٰ ذاتها، وهو زلزالها المختص بها، المعروف منها المتوقع، كما تقول: غضب زيد غضبة، وكما يقول الراجز:

أنا أبو النجم وشعري شعري

والقاعدة في المصدر والمؤكد يجيء اتباعًا لفعله.(١)

وهذا الاستدلال يفيد أمرين؛ أحدهما سؤال، كأنه لما ختمت سورة البينة قبلها ببيان حال الفريقين المؤمن والكافر، قيل متىٰ هذا، فقال: إذا زلزلت الأرض زلزالها ... أي حين يحدث ذلك، لذلك ختمت السورة بالترغيب والترهيب: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

وهذا يتناسب مع مقصوده الأعظم الذي حده البقاعي بأنه: "انكشاف الأمور، وظهور المقدر أتم ظهور، وانقسام الناس في الجزاء في دار البقاء إلىٰ سعادة وشقاء، وعلىٰ ذلك دل اسمها بتأمل الظرف ومظروفه، وما أفاد من بديع القدر وصروفه"(٢)، فكانت الدلالة الأولىٰ من هذا الاستهلال: أن آخر البينة أثار سؤالًا، جاءت هذه جوابًا

(١) البرهان للزركشي ٢/ ٣٩٦ بقدر من التصرف.

(٢) نظم الدرر ٨/ ٥٠٤.

كله، وهذا يسمىٰ (في ترابط الجمل: شبه كمال اتصال)، والدلالة الثانية لهذا الافتتاح وهي الإثارة والتنبيه نحو معرفة ما يحدث إذا اضطربت الأرض هذا الاضطراب، فجاءت آيات السورة موضحة له، وعليه فإن جمال الدلالة والسياق في هذا النص الجليل يكمن في تحريك المشاعر بشدة مصحوبة باضطراب شديد، ووجل عظيم، يكون مثار سؤال للمنكرين، وإقرار بوعيد مصدق من المؤمنين، وهذا الاضطراب الشديد يطابق في شدته حال الفريقين، فتنخلع له قلوب الكافرين، ويكون سهلًا ليّنا علىٰ قلوب المصدقين، وهو آخر مراحل النفخ بعد ارتجاف الأرض ودكها ومدها حسب أحوال الناس عليها، ويتجلىٰ ذلك الفرق في ختامها، كما تجلىٰ في مقدمتها.

ويبقى من شواهد دخول "إذا" على الفعل الصريح قوله -تعالىٰ-: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ [النصر: ١]، وهذه السورة تسمىٰ سورة النصر، واسمها يعبر عن مقصودها، ومقصودها يوجه جمال الدلالة فيها؛ لأنه كما قال البقاعي: "الإعلام بتمام الدين اللازم عن مدلول اسمها (النصر) اللازم عنه موت النبي -صلَّىٰ الله عليه وسلَّم- اللازم عنه العلم بأنه ما برز إلىٰ عالم الكون والفساد إلا لإعلاء كلمة الله -تعالىٰ-، وإدحاض كلمة الشيطان اللازم منه أنه -صلَّىٰ الله عليه وسلَّم- خلاصة الوجود، وأعظم عبد للمولىٰ الودود، وعلىٰ ذلك أيضًا دل اسمها التوديع، وحال نزولها وهو أيام التشريق من سنة حجة الوداع"(١)، يعني هذا أنها نزلت في حجة الوداع بعد أن أتم النبي -صلَّىٰ الله عليه وسلَّم- دعوته، وأخذ الناس يدخلون في دين الله أفواجًا، فهي دالة علىٰ تحقيق وعد الله بالنصر، كما قال ربنا -سبحانه-: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، بعد أن دلت سورة الكافرون قبلها علىٰ متاركة

(١) مصاعد النظر ٣/ ٢٦٨، ونظم الدرر، ٨/ ٥٥٩.

الكفار[(١)] فلا يتبع دينهم ولا يتبعون دينه ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]، ولا يمكن أن اختتم سورة بذلك إلا بعد أن تبين ختم الله علىٰ قلوبهم، فلا يرجىٰ لهم صلاحًا، ولا ينتظر منهم هدىٰ.

ومن هنا يكمن جمال الدلالة والسياق في تحقيق وعد الله بنصر نبيه، وختام النبوة بهذا النصر، وانتصار دينه، وعدم توقفه حدود انتشاره بعد موته، والتعبير بـ(إذا) أول سورة دال علىٰ التحقيق والتعبير بالمضارع ﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ دال علىٰ التجدد بتجدد الحياة، والاستمرار باستمرار بقائها، وكلمة أفواجًا تدل علىٰ غزارة الدخول فيه والإقبال عليه، وفي ذلك دلالة عليا علىٰ نجاح دعوته، وقوة صبره في أداء مهمته، ومن ثم ختمت السورة ببيان حق من حقق وعده، ونصر نبيه، وأعلىٰ له كلمته بأنه هو الجدير بالتنزيه والاستغفار؛ لأن باب توبته لا يغلق ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا﴾، وهذا أيضًا من متممات الدلالة علىٰ كمال الدين، وختام الرسالة والرسالات.

أما الشواهد التي دخلت فيها (إذا) على الاسم، وتقدير الفعل فهي ثلاثة، وكلها آيات كونية سماوية ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [التكوير: ١]، و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١]، و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١].

سبق أن (إذا) تدخل علىٰ المقطوع به، الذي هو كائن لا محالة، ولذلك كانت ملازمته للظرفية، وإن تضمنت معنىٰ الشرط، فهي ظرف للمستقبل، وجوابها قوله -تعالىٰ-: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾، وهي (إذا) متعلقة بجوابها، والشمس نائب فاعل بفعل مقدر يفسره المذكور، ومنع بعض العلماء ارتفاعها بالابتداء؛ لأنها بمنزلة

(١) ينظر: النظم الفني ٣٧٠.

حروف المجازاة لا يليها إلا الفعل مظهرًا أو مضمرًا، وأجاز نحاة الكوفة والأخفش من البصريين وقوع المبتدأ بعدها، وجملة (كورت) مفسرة لا محل لها، وعلل الكوفيون ارتفاعها بالابتداء بأن (إذا) غير عريقة في الشرط(١)، وأن هذا يجعل المسند إليه مقدما علىٰ الخبر الفعلي الذي علل البلاغيون سره بتقوية الحكم وتوكيده في السرد هنا علىٰ المنكرين، وهذا أبلغ من أن يقال: إذا كورت الشمس، والشمس هي المنوط بها الحكم، وذلك يستدعي تقديمها، وهكذا في الجمل الاثنا عشر التي جاءت بعدها.

والتعبير بالماضي عن المستقبل وخاصة في موقعه خبرًا عن المسند إليه فيه التحقيق الذي تتوالىٰ الجمل لإثباته، وهو مقدمات قيام الساعة، وكورت أي ذهب ضوؤها لتكويرها؛ أي لف بعضها علىٰ بعض، وانكدار النجوم: تساقطها وتهاويها، والجبال سيرت؛ أي أزيلت عن مواضعها، والعشار عطلت؛ أي النوق الحوامل أهملت بلا راع، والوحوش حشرت؛ أي جُمعت من كل صوب، والبحار سجرت؛ أي أوقدت فامتلأت نارًا تضطرم، والنفوس زوجت؛ أي قرنت كل نفس بشكلها، والمؤدة؛ أي البنت التي دفنت حية، والصحف نشرت أي فرقت صحف الأعمال، والسماء كشطت؛ أي قلعت كما يقلع السقف، والجحيم سعرت؛ أي أوقدت وأضرمت للكفار، والجنة أزلفت؛ أي أُدنيت وقربت من المتقين، وجواب هذه الجمل كلها (علمت نفس ما أحضرت)؛ أي ما قدمت من خير أو شر ..(٢)

(١) إعراب القرآن للنحاس تحقيق: د. زهير غازي، نشر عالم الكتب، ١٩٨٨م، ٥/ ١٥٧، والكشاف، ج٤، وإعراب القرآن الكريم وبيانه، ٨/ ٢٣٣، والتحرير والتنوير، ٣/ ١٤١.
(٢) ينظر: المفردات للراغب، وكلمات القرآن.

فهذه ثنتا عشرة صفة ست منها قبل الساعة وست منها بعد قيام الساعة، لا أرىٰ فيها تكريرًا ولا إطنابًا -كما ذهب البعض- بتكرار (إذا) لأن كل واحدة منها تبين صفة غير الأخرىٰ، وتكرار إذا معها جميعها تأكيد للقطع بها؛ لأنها في مواجهة منكري البعث، وهي متنوعة بين الظواهر الكونية وغيرها؛ لتكون علامات القيامة جامعة لتعطيل كل شيء تصلح به الحياة، ثم إن المقام مقام تهديد، والسياق كله وعيد شديد، وإنذار مخيف، فلا بد من تكرار إذا للقطع بكل صفة، وتحقيق كل خبر، وسيتم التناسب بينها وبين سورة (عبس) التي ختمت بقوله -تعالىٰ-: ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ ﴿٤٠﴾ تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ ﴾ [عبس: ٣٣-٤٢].

فهنا وعيد يلاحقه أشد منه؛ لأن الصاخة هي الصرخة القوية التي تُصمّ لشدتها الآذان، وسورة الشمس بهذه الآيات والعجائب الدالة علىٰ القدرة الإلهية تفسير لهذه الصاخة وبيان لصنيعها؛ أي أن ساعتها لا يتحقق فرار الجميع من الجميع فقط، بل تتغير معالم الكون التي لا يكون إلا بها من شمس، ونجوم، وجبال، وعشار، ووحوش، وبحار إلخ.

ومن ثم يكمن جمال الدلالة والسياق في التعبير عن الواقع بعد مجيء الصاخة أي الصرخة العالية التي هي النفخة الثانية.

كما يتجلىٰ مجال الدلالة أيضًا في التعبير بـ(إذا) الظرفية المتعلقة بالوقت، لذا قال أُبي بن كعب محدثًا: بينما الناس في أسواقهم؛ إذ ذهب ضوء الشمس، فبينما هم علىٰ ذلك تناثرت النجوم، وبينما هم علىٰ ذلك إذ وقعت الجبال، وتزلزلت الأرض، وهربت الجن إلىٰ الإنس، والإنس إلىٰ الجن، وعطلت العشار؛ أي أهملها أهلها، واختلطت الوحوش فذلك حشرها، وقالت الجن للإنس نحن نعرف لكم الخبر،

فمضوا إلىٰ البحار فوجدوها قد سعرت نيرانا، ثم تصدعت الأرض إلىٰ الأرض السفلىٰ إلىٰ السماء العليا، ثم أرسلت عليهم الريح فأماتتهم"(١).

وهذا كله من قدرة العليم الخبير، وهذه الأمور تجري علىٰ حقيقة الكونية وغيرها، وتكوير الليل علىٰ النهار، وتكوير النهار علىٰ الليل حقيقة إلهية، ومن دلائل القدرة، ولكن بعض العلماء يرىٰ أن التعبير بـ(كورت) و(انكدرت) و(سيرت) وأن العشار يقصد بها السحائب، وكل ذلك علىٰ غير الحقيقة، فقد يكون مجازًا مرسلًا، وقد يكون استعارة، وقد يكون كناية، وذلك قول الشهاب الخفاجي: وبيانه كما يأتي بإيجاز: كورت: لُفت من كورت العمامة إذا لففتها بمعنىٰ: رفعت، يعني أنه مجاز عن رفعها، أي إزالتها من مكانها، والعلاقة اللزوم، والمانع من كونها علىٰ الحقيقة كونها من الأجرام التي لا تلف كالثياب، وكذا يقول في تفسير البيضاوي (انكدرت) بمعنىٰ أظلمت من كدرت الماء فانكدر، يقول: يعني أنه استعارة، فشبه ذهاب ضوئها بتكدير الماء، وتفسير (وإذا العشار عطلت) بأن المقصود بها السحائب، علىٰ الاستعارة، شبه السحائب المتوقع مطرها بالناقة العشراء، القريب وضع حملها، وهي استعارة لطيفة مع المناسبة التامة بينه وبين ما قبله، فإن السحب تنعقد علىٰ رؤوس الجبال، وتُرىٰ عندها، ولا ينافيه كونه مناسبًا لما بعده علىٰ الأول، فإنه معنىٰ حقيقي مرجح بنفسه، وتعطيلها علىٰ هذا مجاز أيضًا؛ بمعنىٰ عدم ارتقاب مطرها؛ لأنهم في شغل عنه.(٢)

وعلىٰ ذلك يكون جمال الدلالة في التعبير بغير طريق الحقيقة، ولكن لا أرجح هذا، ولا أرىٰ له وجهًا في الحديث عن الساعة وعلاماتها، فإن قدرة الله أعلىٰ وأجل في طي الشمس، ولفها بحيث يُطمس ضياؤها، كيف لا وهو القائل: ﴿يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ

(١) إعراب القرآن للنحاس، ٥/ ١٥٧.

(٢) حاشية الشهاب الخفاجي علىٰ تفسير البيضاوي، دار صادر، بيروت، ٨/ ٣٢٦، ٣٢٧ باختصار.

﴿كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، وكذا تساقط النجوم، وتسيير الجبال مصداقًا لوعده -سبحانه-: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا ١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعٗا صَفۡصَفٗا ١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجٗا وَلَآ أَمۡتٗا﴾ [طه: ١٠٥-١٠٧]، فتسييرها هنا بمعنىٰ تحريكها عن مواضعها، إنما هو مقدمة لهذا النسف، والله هو القائل: ﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ﴾ [إبراهيم: ٤٨] فالأولىٰ أن تجري دلالة الكلام علىٰ حقيقته التي جاء عليها السياق كما تبين.

والشاهد الثاني من دخول (إذا) على الاسم وإضمار الفعل لوجود ما يدل عليه قوله -تعالىٰ-: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ١ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ٢ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ٣ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ٤ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ﴾ [الانفطار: ١-٥].

فقوله -سبحانه-: (انفطرت)؛ أي انشقت، وانتشار الكواكب: تساقطها متفرقة، وتفجير البحار: تشق جوانبها حتىٰ تصير بحرًا واحدًا، وإذا القبور بعثرت؛ أي قُلب ترابها وأخرج موتاها، والفرق بينها وبين سورة التكوير أنه هناك ذكر اثنتي عشرة علامة من علامات الساعة، وهنا ذكر أربعة فقط، فهناك ذكر الشمس، وهنا السماء، هناك النجوم، وهنا الكواكب، وهنا "وإذا البحار فجرت" هناك "وإذا البحار سجرت"، وهنا "وإذا القبور بعثرت" وهنا "وإذا النفوس زوجت".

وانفطار السماء مرحلة أعلىٰ من تكوير الشمس، وكذا انتثار الكواكب كذلك مرحلة أقوىٰ من انكدار النجوم، فالانكدار تساقط، أما الانتثار تساقط وتفرق علىٰ غير نظام، وهذا في الرهبة والشدة أقوىٰ، والانتثار يناسب الانفطار، وهناك تكوير الشمي يطفئ ضوءها، وانكدار النجوم يعطل عملها، بخلاف انفطار السماء، وانتثار الكواكب، فهذا ليس مجرد تعطيل، بل هو هدم بالكلية.

وقال الراغب: أصل النجم: الكوكب الطالع، وجمعه: نجوم، وقال -تعالىٰ-: ﴿وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦]، قيل أراد به الكوكب، والكواكب: النجوم البادية، ولا يقال لها كواكب إلا إذا بدت، قال -تعالىٰ-: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗا﴾ [الأنعام: ٧٦]"(١).

أما الفرق بين سجرت، وفجرت، فكل منهما نوع عذاب، ولكن التسجير يتعلق بالنار، والتفجير يتعلق بالماء، والنار وسيلة إحراق، والماء وسيلة إغراق، قال الراغب: السّجر: تهييج النار، يقال: سجرت التنور، ومنه ﴿وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ﴾ [الطور: ٦]، وقال -تعالىٰ-: ﴿ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ﴾ [غافر: ٧١، ٧٢]، وقال: فجّرته فانفجر، وفجرته فتفجّر، قال -تعالىٰ-: ﴿وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا﴾ [القمر: ١١]، وقال -تعالىٰ-: ﴿فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗا﴾ [البقرة: ٦](٢).

وقيل: سُجّرت تناسب سُعّرت في قوله -تعالىٰ-: ﴿وَإِذَا ٱلۡجَحِيمُ سُعِّرَتۡ﴾ [التكوير: ١٢]، وتسجر فتصير نارًا، فتسجر بها جهنم، وعليه فهذا مناسب لسياق السورة، و(فجرت) في سورة الانفطار تناسب (إذا السماء انفطرت)؛ لأن معناه: سيب ماؤها فأسيح حتىٰ فاض علىٰ وجه الأرض ففار من مكانه، وهذا أنسب لانفطار السماء، فبإزاء انتثار الكواكب انفجار البحار، فكان الإخبار عنها بهذا المعنىٰ أولىٰ بهذا المكان لتقدم ما يشبهها من التغيير، ومجيء ما هو تذييل عن مكانه من بعثرة القبور.

أما اختلاف الجواب في التكوير ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ﴾ [التكوير: ١٤]، وفي الانفطار ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ﴾ [الانفطار: ٥].

---

(١) المفردات: (نجم) و(كب).

(٢) السابق (سجر)، و(فجر).

وجواب ذلك: أن بينهما عموم وخصوص في تنويع الخطاب فإن أحضرت مطلقًا في الأعمال والصحائف والجزاء، وقوله (قدمت وأخرت) تفصيل لتلك الأعمال، وقيل: ما قدمته للدنيا، وأخرته للآخرة.(١)

وبناء علىٰ ذلك فجمال الدلالة والسياق في نص الجملة الأولىٰ هنا امتداد للسورة السابقة بما فيها من تذكير بيوم الوعيد، وهنا تحذير من الاغترار بالأعمال، يتمثل في نداء الحق: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ... ﴾ [الانفطار: ٦].

فكل من السورتين: التكوير والانفطار وعيد، وتذكير، وحساب علىٰ كل عمل، ولكن ما أجمل في الأولىٰ فُصِّل في الثانية، والثانية أشد تفصيلًا وأكبر تحذيرًا في التصريح بعدم الاغترار برحمة الله وإمهاله.

ويبقىٰ الشاهد الأخير من شواهد الاستهلال بجملة الشرط، وهو قوله -تعالىٰ-: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ١ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ٢ وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ ٣ وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ ٤ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ﴾ [الانشقاق: ١-٥].

سبق أن العلماء فسروا الانفطار في (إذا السماء انفطرت) بالانشقاق، وهنا جاء المعنىٰ صريحًا بنصه في هذه السورة ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾، وهذا يدل علىٰ الترقي بين هذه السور من درجة في الوعيد، والتحذير، والتذكير، إلىٰ درجة أعلىٰ، ولكن لوحظ أن سورة المطففين فصلت بينهما حسب ترتيب المصحف، مع أن سورة الانشقاق نزلت بعد سورة الانفطار كما أخبر أهل العلم، والسبب في ذلك هو الاتصال الوثيق بين سورة المطففين وسورة الانفطار، فلما قال -سبحانه-في آخر الانفطار ﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٌ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩]، قال بعدها: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ

(١) ينظر: كشف المعاني في المتشابه من المثاني، لأبي عبد الله الكتاني، ت٧٢٢هـ، تحقيق: د. عبد الجواد خلف، دار الوفاء بالمنصورة، ط١، ١٩٩٠م، ٣٧٣، ودرة التنزيل للإسكافي، ٣٧٢.

﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [المطففين: ١-٥]، فاليوم العظيم هذا هو الذي قال فيه ربنا في خاتمة الانفطار: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا﴾، وهو اليوم العظيم الذي أنكر عليهم تغافله، وانغماسهم فيما حرم الله سواء في حقه أو في حقوق عباده التي تتناسب مع بداية السورة ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾، ثم تأتي سورة الانشقاق للتذكير بأن نهاية الكدح لا بد من لقاء الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾، فالسماء هنا انشقت، واستمعت، وحق لها ذلك، والأرض انبسطت، وألقت ما فيها متعمدة إخلاء ذاتها، وهي والسماء التي قالتا قبل ذلك في بداية صنعهما ﴿أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]، فطاعتهما في بدء خلقهما، ويوم تبديلهما امتثالًا لأمر ربهما.

ويكمن جمال الدلالة والسياق في هذا الترقي في علامات الساعة، والتشوق الذي تحدثه بداية كل سورة منها؛ لمعرفة الأحداث والوقائع التي تختم بها الدنيا، ويتحقق بها وعد الله، ويقر به أهل الإيمان، ويتحسر أهل الكفر والشقاق والعصيان حين يجدوا ما بالغوا في إنكاره واقعًا، وتجزىٰ كل نفس بما كسبت، كما كان في سورة التكوير في جواب إذا ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ ازداد تفصيله فقال في الانفطار ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾، ثم ارتقىٰ علم كل نفس هنا إلىٰ زيادة تفصيل تتجلىٰ دلالته في سياق قوله -تعالىٰ-: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾ [الانشقاق: ٧-١٥].

المصادر والمراجع

١. **الإتقان في علوم القرآن**، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ) لهيئة المصرية العامة للكتاب، ط: ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤ م

٢. **أصول السرخسي**، محمد بن أحمد بن أبي سهل شمس الأئمة السرخسي (المتوفى: ٤٨٣هـ) دار المعرفة – بيروت.

٣. **إعراب القرآن للنحاس**، تحقيق: د. زهير غازي، نشر عالم الكتب، ١٩٨٨م.

٤. **إعراب القرآن وبيانه**، محيي الدين الدرويش، دار اليمامة، حلب، ط٩، ٢٠٠٥م.

٥. **البحر المحيط في التفسير**، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (المتوفى: ٧٤٥هـ)، تحقق: صدقي محمد جميل، دار الفكر – بيروت، ١٤٢٠ هـ.

٦. **البرهان في تناسب سور القرآن** تحقيق: محمد شعباني، وزارة الأوقاف بالمغرب، ١٩٩٠م، ٢٧٥.

٧. **البرهان في علوم القرآن**، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (المتوفى: ٧٩٤هـ)، تحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة: الأولى، ١٣٧٦ هـ -١٩٥٧م، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركائه.

٨. **بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز**، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروز آبادي (المتوفى: ٨١٧هـ)، تحقيق: محمد علي النجار، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية -لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة.

٩. **التحرير والتنوير**، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى: ١٣٩٣هـ)، الدار التونسية للنشر – تونس، ١٩٨٤ هـ.

١٠. **تفسير القرطبي** تحقيق: أحمد البرذوني، دار الكتب المصرية، ط٢، ١٩٦٤م.

١١. **الجدول في إعراب القرآن الكريم**، محمود بن عبد الرحيم صافي (المتوفى: ١٣٧٦هـ)، دار الرشيد، دمشق -مؤسسة الإيمان، بيروت، ط: الرابعة، ١٤١٨ هـ.

١٢. **حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي**، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي المصري الحنفي (المتوفى: ١٠٦٩هـ) دار صادر، بيروت.

١٣. **خصائص التراكيب دارسة تحليلية لمسائل علم المعاني**، محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، ط: السابعة.

١٤. **درة التنزيل وغرة التأويل**، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الأصبهاني المعروف بالخطيب الإسكافي (المتوفى: ٤٢٠هـ)، دراسة وتحقيق د/ محمد مصطفى آيدين، جامعة أم القرى، وزارة التعليم العالي سلسلة الرسائل العلمية الموصى بها، ط: الأولى، ١٤٢٢ هـ -٢٠٠١ م.

١٥. **الدرر اللوامع في شرح جمع الجوامع**، شهاب الدين الكوراني، ت٨٩٣هـ، تحقيق: سعيد بن غالب الحميدي، الجامعة الإسلامية، ٢٠٠٨م.

١٦. **دلائل الإعجاز في علم المعاني**، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار (المتوفى: ٤٧١هـ)، تحقيق: محمود محمد شاكر أبو فهر، مطبعة المدني بالقاهرة -دار المدني بجدة، ط: الثالثة ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

١٧. **شرح التلويح على التوضيح لمتن التنقيح في أصول الفقه**، تحقيق: زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١٩٩٦م.

١٨. **الغيث الهامع شرح جمع الجوامع**، لأبي زرعة العراقي، ت٨٢٦هـ، دار الكتب العلمية، ط١، ٢٠٠٤م.

١٩. **الفروق اللغوية** ، تحقيق: حسام الدين القدسي، دار الكتب، ١٩٨١م.

٢٠. **الكتاب لسيبويه**، تحقيق: عبد السلام هارون. مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط٣، ١٩٨٨م.

٢١. **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل**، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ)، دار الكتاب العربي –بيروت، ط: الثالثة -١٤٠٧ هـ.

٢٢. **كشف المعاني في المتشابه من المثاني**، لأبي عبد الله الكتاني، ت٧٢٢هـ، تحقيق: د. عبد الجواد خلف، دار الوفاء بالمنصورة، ط١، ١٩٩٠م.

٢٣. **الكشف والبيان عن تفسير القرآن**، أبو إسحاق أحمد بن إبراهيم الثعلبي (المتوفى: ٤٢٧ هـ)، د. صلاح باعثمان، د. حسن الغزالي، أ. د. زيد مهارش، أ. د. أمين باشه، تحقيق: عدد من الباحثين، دار التفسير، جدة –المملكة العربية السعودية، ط: الأولى، ١٤٣٦ هـ -٢٠١٥ م.

٢٤. **لمسات بيانية في نصوص من التنزيل**، فاضل بن صالح بن مهدي بن خليل البدري السامرائي، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان – الأردن، ط: الثالثة، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م.

٢٥. **المحرر الوجيز لابن عطية**، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٢هـ.

٢٦. **مشكل إعراب القرآن**، تحقيق: د. حاتم الضامن، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٠٥هـ.

٢٧. **مصاعد النظر لإشراف على مقاصد السور**، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (المتوفى: ٨٨٥هـ)، مكتبة المعارف – الرياض، ط: الأولى ١٤٠٨ هـ -١٩٨٧ م.

٢٨. **معاني القرآن للفراء**، تحقيق: أحمد يوسف النجاتي / محمد علي النجار / عبد الفتاح إسماعيل الشلبي

٢٩. **معترك الأقران في إعجاز القرآن**، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)،

٣٠. **مغني اللبيب**، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر – دمشق، ط: السادسة، ١٩٨٥.

٣١. **مفاتيح الغيب = التفسير الكبير**، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: ٦٠٦هـ)، دار إحياء التراث العربي -بيروت، طبعة: الثالثة - ١٤٢٠ هـ.

٣٢. **مفتاح العلوم**، تحقيق: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٩٨٧م.

٣٣. **المفردات في غريب القرآن**، أبو القاسم الحسين المعروف بالراغب الأصفهاني (المتوفى: ٥٠٢هـ)، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية-دمشق -بيروت، ط: الأولى -١٤١٢هـ.

٣٤. **مقامات عسى في القرآن الكريم**، دراسة بلاغية مقارنة لكاتب هذا البحث، دار السعادة بالقاهرة، ط١، ١٩٩٧م، ص٦٩.

٣٥. **مقاييس اللغة**، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: ٣٩٥هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ -١٩٧٩م.

٣٦. **المقتصد في شرح الإيضاح لعبد القاهر الجرجاني**، تحقيق: كاظم المرجان، دار الرشيد للنشر، ١٩٨٥م.

٣٧. **المقتضب**، محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالي الأزدي، أبو العباس، المعروف بالمبرد (المتوفى: ٢٨٥هـ)، تحقيق: محمد عبد الخالق عظيمة، عالم الكتب. – بيروت.

٣٨. **نظم الدرر نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (المتوفى: ٨٨٥هـ)، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

٣٩. **النظم الفني في القرآن**، للشيخ عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب.

٤٠. **النكت في إعجاز القرآن**، تحقيق: د. محمد خلف الله، ود. محمد زغلول سلام، دار المعارف بمصر، ط٣، ١٩٧٦م.